



جامعة الشهد حمه لخضر - الوادي -
معهد العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين



- دراسة موضوعية -

مذكرة تخرّج تدخل ضمن متطلبات الحصول على شهادة الماجستير
في العلوم الإسلامية - تخصص: التفسير وعلوم القرآن -

*المشرف:

الأستاذ: جمال الأشراف

*الطالبة:

سميحة رحماني

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
نبيل بوراس	أستاذ محاضر صنف أ	جامعة الشهد حمه لخضر - الوادي	رئيسا
جمال الأشراف	أستاذ مساعد	جامعة الشهد حمه لخضر - الوادي	مشرفا ومقررا
مصباح موساوي	أستاذ محاضر صنف أ	جامعة الشهد حمه لخضر - الوادي	ممتحنا

السنة الجامعية: 1437 - 1438هـ / 2016 - 2017م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أهدي هذا العمل المتواضع لله أولا و أخيرا الذي وفقنا لإنجاز هذه المذكرة والبحث في حياة الصديق رضي الله عنه الدعوية وما تميزت به من سمات رفيعة وخلق كريم .

كما أهدي كذلك الى صاحب الخلق العظيم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين الهادي الى صراط الله المستقيم .

وإلى كل من قال لا اله إلا الله محمد رسول الله أهدي ثمرة هذا الجهد علّه يكون عربون المحبة .
إلى من أرضعتني الحب والحنان إلى رمز الحب وبلسم الشفاء الى القلب الناصع بالبياض.....
أمي الحبيبة.....أحبك...أحبك...أحبك.

وإلى والدي العزيز أبي الغالي له من الله تعالى الرحمة والغفران وأسكنه الله الفردوس الأعلى من الجنة.

وإلى القلوب الطاهرة الرقيقة والنفوس البريئة إلى رياحين حياتي إخوتي..... توفيق ،ياسين ،
خديجة، وإلى زوجات أحي...أمال ،سارة.

وإلى كل أبنائهم...محمد الأسعد، محمد البشير ،محمد المنذر، مؤيد، محمد إياد، ملاك، مروة،
آمنة ،ميسون، جوري.

وإلى شريك العمر ورفيق الدرب، الذي شاركني الحياة بكدها وتعبها، قبل هنائها وسعادتها.

وإلى أغلى الصديقات...أم الخير، هناء، سليمة، آسيا، نورة، منى، وإيمان، لبنى شيماء، أم
الهناء، وداد، وسيلة، وردة.....وإلى كل من يخصني من قريب وبعيد.

وإلى الذين بذلوا كل الجهد وعطاء لكي أصل إلى هذه اللحظة أساتذتي الكرام ولا سيما
المشرف جمال الأشراف أكرمه الله وحفظه....إليكم جميعا أهدي هذا العمل.

الحمد لله الذي أنار لنا درب العلم والمعرفة، وأنعم علينا بنعمة العقل والدين، القائل في محكم التنزيل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:76]... صدق الله العظيم.

وأعاننا على أداء هذا الواجب ووقعنا على إنجاز هذا العمل ونثني ثناء حسنا ووفاء وتقديرا واعترافا منا بالجميل تتقدم بجزيل الشكر لأولئك المخلصين الذين لم يألوا جهدا في مساعدتنا في مجال البحث العلمي كل الاساتذة الفاضلة في هذا تخصص على هذه الدراسة .

وصاحب الفضل في توجيهي ومساعدتي في تجميع المادة البحثية فجزاه الله كل خير

وأخيرا نتقدم بجزيل شكرنا إلى كل من مدوا لنا يد العون والمساعدة في إخراج هذه الدراسة على أكمل وجه

إنَّ سورة التوبة هي البلاغ الأخير لهذه الأمة، وقد أنزلت قبل ختام القرآن ووداع النبي ﷺ وعلى الرغم من أن هذه السورة الكريمة قد تضمنت التهديد الشديد والقساوة للكفار والمنافقين، والدعوة الشديدة للمؤمنين إلى الدفاع عن دينهم، كما حرصت على إبقاء باب التوبة مفتوحا لعامة الناس، وتدعوهم إلى التوبة، فكان سياق السورة رائع في غاية الحكمة، فبدأت بالتهديد وتحريض المؤمنين وفضح المنافقين ثم فتح باب التوبة، ثم التهديد، وطالبت المؤمنين بالتوبة فهي تتحدث عن أخطاء ثم تفتح باب التوبة، حتى بلغت ووصلت مواطن التوبة في السورة اثنتا عشر موطنًا.

Abstract:

Sourat Touba is the last letter for this nation .It was before the end of Quran and the death of our prophet the Mohammed (p b u h). It threatens the disbelievers and asks the believer to defend their religion. this Iourat mentions that the repentance is .opened for humanity as a whole

It starts with the threaten and reveals the hypocrites ,then it opens the door of repentance ,then it threatens again ,ending weth the repentance . the subyect of repentance is repeated in twelree places.

All in all ,this sourat tackles the mistabes of people than it opens the ways of repentance.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق كل شيء فقدره، وأثبت في أم الكتاب ما أرادته وسطره، فلا مؤخر لما قدمه ولا مقدم لما أخره، لا شريك له فيما أبدعه وفطره، العليم الخبير فلا يخفى عليه ما أسره العبد وأضمره أحده على ما أولى من فضله ويسره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قبل توبة العاصي فعفا ذنبه وغفره، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه الكرام البررة، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وسلم تسليما، وبعد:

القرآن الكريم ذلك المصباح المنير الذي يشع من مشكاة الوحي على كل أفق، فقد أنزله ﷺ هداية للبشرية جمعاء لإخراجها من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الهداية، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبودية الطواغيت إلى عبادة الله وحده دون سواه.

وقد حث الله تعالى عباده المؤمنين على تدبر كتابه وفهم معانيه، والغوص في أعماقه للكشف عن لآئه المكنونة

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: 24].

وقد بين رسول الله ﷺ أن من قاموا على تعليم كتاب الله تعالى، هم خير هذه الأمة ، قال تعالى:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 110].

ولا شك أن علوم القرآن والتفسير هي من خير العلوم ، لأنها تتعلق بخير كلام - كلام رب العالمين - حيث يغوص العلماء والمفسرون في أعماقه، ويكشفون عن دقائق معانيه، وإظهارها في أوضح صورة وأحلى بيان.

وهذا العلم له أهمية عظيمة للأمة، متى أخلصت مع كتاب ربها، كما في هذا العلم من معارف شتى وأسرار عجيبة وكنوز لا تفتنى على مر السنين والقرون، وبهذا الكتاب ترتفع الأمة، وبالبعد عنه تبتعد عن رحمة الله تعالى.

فإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خلقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ حنيفاً مستقيماً الفطرة، متجهاً إلى الطاعة، وشاء سبحانه أن يكون مزدوج الخلق، تلتقي في كينونته دوافع الخير، ونوازع الشر، وهدهد النجدين: إما شاكراً وإما كفوراً، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً.

ولمَّا كان الإنسان كثيراً ما يضل عن الطريق السوي ويقع في الخطأ، ويرتكب المعاصي، مما قد يوقعه تحت طائل العقاب وبالتالي يسقط وقد تتحول حياته إلى صراع طويل، لكنه ربما يصحو ويتوب ويعود إلى سبحانه وتعالى، ليعرف الخطأ من الصواب، ويبدأ رحلة جديدة يعود فيها صالحاً سوياً، بعد أن كان يفقد نفسه ويفقده المجتمع.

ولهذا جاءت سورة التوبة لتفتح أبوابها لمن أرادها، وعلى الرغم من أنها نزلت في كشف وفضح الكفار والمنافقين وأعمالهم، لكنها أكدت على إبقاء باب التوبة لجميع الناس، تدعوهم إلى التوبة مرات عديدة وهذا الذي دفعني أن أخوض غمار سورة التوبة (أهميتها ومكانتها وشأنها العظيم) فمن خلال الاستقراء لآياتها، تبين أن سياقها رائع غاية في الحكمة، فإنها تبدأ بالتهديد وتحريض المؤمنين وفضح المنافقين ثم فتحت أبواب التوبة.

ثم التهديد ثم التوبة، وحتى المؤمنين تطالبهم بالتوبة فهي تتحدث عن أخطاء ومعاصي وذنوب ثم تفتح باب التوبة، ثم تدعو المؤمنين للقتال ونصرة الدين وتحفيز المنافقين على التوبة وقتالهم لدفعهم للتوبة وهذا كله من فضل الله ورحمته على عباده ولأهمية التوبة في التطهير من دنس النفس بالمعاصي والذنوب ارتيات الكتابة فيه، البحث موسوسا ب (مواطن التوبة في سورة التوبة).

أهمية البحث :

يمكن تحديد الأهمية في النقاط التالية:

- أ- إن هذا الموضوع (مواطن التوبة في سورة التوبة - دراسة موضوعية -) لهو باب وطريق من طرق الحصول على الأجر والثواب والتقرب إلى الله العزيز الوهاب.
- ب- أن سورة التوبة تفتح أبوابها لمن أراد التوبة لإصلاح أعمالهم ومراجعة حساباتهم والرجوع إلى جادة الطريق.
- ت- بيان فضل الله تعالى ورحمته ورأفته بعباده وقبول توبتهم، فهو سبحانه ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

ث- تقديم حقائق علمية وتربوية للدعاة لتساعدهم على غرس معاني الخير والصلاح والاستقامة من خلال القرآن الكريم.

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى:

- أ- معرفة عناية القرآن بمكانه وعظم التوبة في سورة التوبة.
- ب- مواضع آيات التوبة التي حوتها سورة التوبة.
- ت- استنباط الأحكام الشرعية من آيات التوبة والهدايات التي دلت عليها.
- ث- استخراج مواطن التوبة التي تضمنتها سورة التوبة.
- ج- إظهار وجه الإعجاز القرآني في علاج قضايا المجتمع الإسلامي.

أسباب اختيار الموضوع :

دراسة مواطن التوبة لسورة التوبة - دراسة موضوعية -.

- أ- عدم وجود رسالة علمية تناولت الموضوع حسب علمي.
- ب- المشاركة مع طلبة العلم بإثراء المكتبة الإسلامية بكل ما هو جديد.
- ت- الرغبة الذاتية في جمع المتفرق من كلام أهل العلم حول السورة ومواطن التوبة وتدبر معانيها وبسط أهدافها ومراميتها.

طرح الإشكالية:

لقد جاءت سورة التوبة لتبين لنا الاشارات القرآنية في صفات القائد الرباني الذي يقود أمتة نحو تحقيق الأهداف والمقاصد القرآنية، ولتبين لنا أهمية التوبة للناس من خلال بعض المواطن. ومن هذا المنطلق نطرح التساؤل التالي : ماهي مواطن التوبة التي حوتها هذه السورة ؟ وما مفهوم التوبة ؟ وهل تتفق مع ما ذكر من مواطنها في سورة التوبة ؟ وهل تكون التوبة فقط للعاصين من المؤمنين ؟ أم تعداها إلى غيرهم ؟ وما هي شروط قبولها ؟ وهل تضمنت هذه السورة لشروط التوبة ؟.

المنهج المتبع:

اعتمدت في دراستي على المنهج الاستقرائي والوصفي بجمع الآيات القرآنية التي تضمنت موضوع التوبة في سورة التوبة. ودراسة النصوص وفق طريقة التفسير الموضوعي من خلال ما ذكر العلماء فيها من مفسرين ومحدثين ولغويين، وذلك من حيث مناسبة الآية لما قبلها، وأسباب النزول، والمعنى الإجمالي ثم استخراج الدلالات والهدايات.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتنقيب تبين لي أن موضوع بحثي غير مطروق في الجامعات الجزائرية ، وبعد البحث في بعض المواقع، لم أعثر على أي رسالة علمية تناولت هذا الموضوع من قبل كدراسة موضوعية.

1- مواطن التوبة في سورة التوبة. دراسة موضوعية، من إعداد: إيناس فليح خلاوي، جامعة بغداد-كلية التربية للبنات-، قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية(د.ت) وهو عبارة عن مقال نشر في مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، وقد قسمت دراستها الى مبحثين المبحث الأول تحدثت فيه عن ماهية التوبة بصورة مختصرة، والمبحث الثاني تحدثت فيه: عن مواطن التوبة حيث قامت فقط بسرد هذه المواطن.

أما هذه الدراسة فتناولت فيها مواطن التوبة في سورة التوبة، فهي دراسة موضوعية تتعلق بأحد أهم موضوعات السورة وهي قضية التوبة بتتبع المواضع التي ذكرت فيها ودراستها.

ومن أهم الخطوات المنهجية التي سرنا عليها:

- نسبة الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية، ويكون ذلك في المتن لكثرة الآيات.
- إتباع خطوات التفسير الموضوعي لمواطن التوبة في هذه السورة.
- الاستدلال بالأحاديث الصحيحة، ونقلها من أصولها الحديثية حسب الأصول المتبعة في البحوث العلمية، وخاصة ما كان منها في الكتب التسعة مع عزوها الى مضانها، وذكر الحكم نقلا عن العلماء إلا ما كان في البخاري ومسلم، وما كان غير ذلك بينته.
- تجميع المادة العلمية المتعلقة بالبحث وتوزيعها على حسب خطة البحث ومباحثها.
- تنظيم المادة العلمية وتنسيقها بأسلوب علمي، مع بذل الجهد في جودتها وحسنها.

خطة البحث

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى فصلين : الفصل الأول نظري، والفصل الثاني تطبيقي.

أما الفصل الأول: فقد خصصته للتعريف بماهية التوبة ودراسة سورة التوبة، وقسمته إلى مبحثين:

أما المبحث الأول: فقد تناولت فيه ماهية التوبة، وقسمته إلى ستة مطالب:

أما المطلب الأول: فكان للتعريف بمعنى التوبة لغة واصطلاحاً، وتناولت في المطلب الثاني معاني التوبة في القرآن الكريم، وبيّنت في المطلب الثالث أنواع التوبة، ثم تطرقت في المطلب الرابع حكم التوبة، وبعده إلى المطلب الخامس شروط التوبة، وخصصت المطلب السادس لتبيين فضائل التوبة.

وأما المبحث الثاني فجعلته لدراسة سورة التوبة، وقسمته إلى خمسة مطالب، خصصت المطلب الأول لبيان عدد آياتها، و مكيتها ومدنيها، وأسمائها، وخصصت المطلب الثاني للتعرف على سبب نزولها، وأما المطلب الثالث فتحدثت فيه عن مناسبات السورة، وأما المطلب الرابع فكان الكلام فيه عن المحور الرئيسي للسورة، وكان المطلب الخامس منه لأهداف السورة.

وأما الفصل الثاني: فقد خصصته لدراسة مواطن التوبة في سورة التوبة، وقد قسمته إلى مبحثين:

أما المبحث الأول فكان للحديث عن أسلوب التعامل مع المشركين حال الحرب، وقد اشتمل على خمسة مطالب، جعلت المطلب الأول منهم للكلام عن الدعوة وإقامة الحجة ابتداءً من خلال [الآية: 03]، والمطلب الثاني للتعرف على شروط توبة المخالف أو المنادي في [الآية: 05]، والمطلب الثالث معاملة المشركين كالأخوان واستمالتهم للدخول في الإسلام من خلال [الآيات: 7-8-9-10-11]، وكان الكلام في المطلب الرابع عن الإعجاز في توبة المشركين بعد الأمر بالقتال في [الآيتين: 14-15]، والمطلب الخامس وفيه توبة الله على المؤمنين وتذكيرهم بالنصر وابتلاءهم بعد الابتلاء من خلال [الآيات: 25-26-27]، وتحدثت في المطلب السادس عن تهديد المنافقين والمرتدين وفتح باب التوبة لهم في [الآيتين: 73-74].

وكان المبحث الثاني منه للكلام عن الجو العام لغزوة تبوك، وقد تضمن ستة مطالب: المطلب الأول وفيه الندم على ما فات والتحذير من إيثار الدعة والرضا بسوء جوار المنافقين من خلال [الآية: 102] والمطلب الثاني للحث على التوبة والصدقات في [الآيتين: 103-104]، وأما المطلب الثالث فقد اشتمل على التخويف الشديد للمتخلفين والحث على التوبة [الآية: 106] وبالنسبة للمطلب الرابع فقد تحدثت فيه أن التوبة من صفات المؤمنين [الآية: 112]، وأما المطلب الخامس وفيه توبة الله على النبي

والمهاجرين والأنصار من خلال [الآية:117]، وتطرقت في المطلب السادس إلى التنويه بشأن المخلفين وضمهم مع المقطوع عنهم بالرضا وبعثا للمؤمنين على التوبة من خلال [الآيتين:118-119].

وأخيرا ختمت هذا البحث بخاتمة تضمنتها جملة من النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثي ودراستي لهذا الموضوع.

الفصل الأول: ماهية التوبة ودراسة
سورة التوبة.

المبحث الأول: ماهية التوبة.

المبحث الثاني: دراسة سورة التوبة.

الفصل الأول: ماهية التوبة ودراسة سورة التوبة

إنّ للتوبة شرف ومكانة عظيمة، فهي باب الدخول إلى فضل الله وإحسانه ورحمته، ولهذا الشأن سُمّي المولى ﷺ سورة بهذا الاسم، وسنحاول في هذا الفصل التعرف على:

- ماهية التوبة.

- دراسة سورة التوبة.

المبحث الأول: ماهية التوبة

المطلب الأول: معنى التوبة لغة واصطلاحاً

أولاً: التوبة لغة:

* ما جاء في معجم مقاييس اللغة في مادة (تَوَبَ):

التَّاءُ وَالْوَاوُ وَالْبَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى الرَّجُوعِ. يُقَالُ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، أَيْ رَجَعَ عَنْهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً وَمَتَابًا، فَهُوَ تَائِبٌ. وَالتَّوْبُ التَّوْبَةُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ [غافر: 3].⁽¹⁾

* وقال ابن منظور: "وتاب إلى الله يتوب توباً، وتوبة، ومتاباً: أناب، ورجع عن المعصية إلى الطاعة".⁽²⁾

* وأما ما جاء في المفردات في غريب القرآن في مادة (تَوَبَ):

التَّوْبُ: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإنّ الاعتذار على ثلاثة أوجه: إمّا أن يقول المعتذر: لم أفعل.

(1) ابن فارس، أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ج1 (لا.ط؛ لا.م: دار الفكر، 1339هـ، 1977م)، ص357.

(2) ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب. ج1 (ط:1؛ بيروت: دار صادر، د.ت)، ص233.

أو يقول:

فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة، والتَّوْبَةُ في الشرع: ترك الذنب لقبحة والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة. وتاب إلى الله، فذكر «إلى الله» يقتضي الإنابة

نحو: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْنَلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 54]، ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31]، ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: 74]، ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 117]، ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: 118]، ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ [البقرة: 187].⁽¹⁾

والتائب يقال لبذل التوبة ولقابل التوبة، فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده. والتَّوَابُ: العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كل وقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركا لجميعه، وقد يقال ذلك لله تعالى لكثرة قبوله توبة العباد حالا بعد حال.

وقوله: ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: 71]

أي: التوبة التامة، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل.

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ [الرعد: 30]، ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 54].⁽²⁾

* وما جاء في مختار الصحاح:

(التَّوْبَةُ): الرَّجُوعُ عَنِ الذَّنْبِ وَبَابُهُ قَالَ وَ (تَوْبَةً) أَيْضًا. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: (التَّوْبُ) جَمْعُ تَوْبَةٍ كَعَوْمَةٍ وَعَوْمٌ قُلْتُ: لَمْ يَذْكَرِ الْجَوْهَرِيُّ فِي [ع و م] مَعْنَى الْعَوْمَةِ وَلَا وَجَدْتُهُ فِي غَيْرِ الصَّحَاحِ مِنْ أَصُولِ اللَّعَةِ الَّتِي عِنْدِي وَلَكِنْ لَهُ نَظِيرٌ أَشْهُرٌ مِنْ هَذَا وَهُوَ دَوْمَةٌ وَدَوْمٌ وَهُوَ شَجَرٌ الْمُقْلِ. قَالَ: وَ (الْمَتَابُ) التَّوْبَةُ

(1) (الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ج1 ط:1؛ دمشق، بيروت: دار القلم، دار الشامية، 1412هـ)، ص169.

(2) المرجع نفسه، ص169.

و(تَابَ) اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَفَّهُ لَهَا. وَفِي كِتَابِ سَيَبَوِيهِ (التَّوْبَةُ) وَهِيَ بِوَزْنِ التَّبَصُّرَةِ وَ (اسْتَتَابَهُ) سَأَلَهُ أَنْ يَتُوبَ. (1)

ومن خلال هذه التعريفات نجد أن التوبة في اللغة تدور حول معنى واحد وهي الرجوع من الذنب وتركه.

ثانيا: التوبة اصطلاحا:

قال الإمام القرطبي: في تفسيره: "النَّدَمُ بِالْقَلْبِ، وَتَرَكَ الْمَعْصِيَةَ فِي الْحَالِ، وَالْعَزْمُ عَلَى أَلَّا يَعُودَ إِلَى مِثْلِهَا، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حَيَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا مِنْ غَيْرِهِ". (2)

وقيل: التوبة: "عِبَارَةٌ عَنْ نَدَمٍ يُورِثُ عَزْمًا وَقَصْدًا فِي تَرْكِ الْمَعَاصِي". (3)

وقيل أيضا: التوبة: "الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب.

أما التوبة النصوح: هي توثيق بالعزم على ألا يعود لمثله، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والإضمار على ألا يعود... فهي إذن: الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة". (4)

وعرفها ابن القيم: حقيقة التوبة: "هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال والعزم على ألا يعاوده في المستقبل". (5)

وذكر ابن حجر العسقلاني رحمه الله أن تعريف التوبة هو "ترك الندم لقبحه والندم على فعله والعزم على عدم العود، ورد المظلمة إن كانت، أو طلب البراءة من صاحبها". (6)

(1) الرازي، زين الدين الحنفي، مختار الصحاح. تحقيق: يوسف الشيخ محمد. ج1 (ط:5؛ بيروت، صيدا: مكتبة العصرية، الدار النموذجية، 1420هـ، 1999م)، ص47.

(2) القرطبي، أبو عبد الله بن أبي بكر، جامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ج5 (ط:2؛ القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ، 1964)، ص91.

(3) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. ج4 (لا.ط؛ بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ص34.

(4) الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات. تحقيق: جماعة من العلماء. ج1 (ط:1؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1403هـ، 1983م)، ص70.

(5) ينظر: ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في إياك نعبد إياك نستعين. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. ج1 (ط:3؛ بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ، 1996م)، ص203، 202.

(6) أحمد ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري. كتبه: محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه وصححه: محمد الدين الخطيب، تعليقات العلامة: عبد العزيز بن باز. ج11 (لا.ط؛ بيروت: دار المعرفة، 1379هـ)، ص103.

وقيل "التوبة ترك الذنوب مخافة الله؛ واستشعار قبحه، وندم على المعصية من حيث هي معصية والعزيمة على ألا يعود إليها إذا قدر عليها، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من أعمال بالإعادة.⁽¹⁾ فمن خلال ما سبق نستنتج أن التوبة هي معرفة العبد لقبح الذنوب وضررها عليه، فيقلع عنها مخلصاً في إقلاعه عن الذنب لله تعالى، نادماً على ما بدر منه في الماضي من المعاصي قصداً أو جهلاً، عازماً عزمًا أكيدا على عدم التوبة إليها في المستقبل.

المطلب الثاني: معاني التوبة في القرآن الكريم:

ما أعظم كلام الله تعالى في القرآن الكريم عن التوبة والإنابة والاستغفار، إنه كلام الخالق للمخلوق والقادر للعاجز، والغني المغني للفقير المحتاج.

ففي القرآن الكريم ألفاظ لها صلة وعلاقة بالتوبة، فقد وردت على ثلاثة أوجه:

1- التوبة بمعنى الندم:

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْنَلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 54].

وقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31].

2- التوبة بمعنى التجاوز:

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 117]، أي بمعنى تجاوز عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 73].

3- التوبة بمعنى الرجوع عن الشيء:

ومنه قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام:

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: 143]، أي رجعت عن سؤال الرؤية.⁽²⁾

(1) صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله، (ط: 4؛ الرياض، المملكة العربية السعودية: دار بلنسية للنشر والتوزيع، 1416هـ)، ص 10.

(2) صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص 13.

المطلب الثالث : أنواع التوبة

التوبة نوعان : التوبة الواجبة، والتوبة المستحبة

1- فالتوبة الواجبة: تكون من ترك مأمور أو فعل محظور، أي فعل المحرمات و ترك الواجبات. وهذه واجبة على جميع المكلفين، كما أمرهم الله تعالى في كتابه وعلى السنة رسوله.

2- والتوبة المستحبة: تكون من فعل المكروهات، وترك المستحبات.

فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدین، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين، ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين: إما الكافرين، وإما الفاسقين.⁽¹⁾

قال الله تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ [الواقعة: 7-12].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكَذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَزُلْزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ [الواقعة: 88-94].

وقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ [فاطر: 32].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ [الإنسان: 3-6].

والتوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه، فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة

(1) ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس المشهور بشيخ الاسلام، جامع الرسائل. تحقيق: محمد رشاد سالم. ج1 (لا.ط؛ جدة: دار المدني، د.ت)، ص227، وينظر: علي أحمد الطهطاوي، منهاج الأبرار شرح كتاب التوبة والاستغفار لشيخ الإسلام ابن تيمية، (ط: 1 بيروت: دار الكتب العلمية، 1425هـ، 2004م)، ص178، وينظر: متولي الشعراوي، التوبة، (ط: 1؛ مصر: مكتبة التراث الإسلامي، 1422هـ، 2001م)، ص27.

من فعل السيئات المنهي عنها، فأكثر الخلق يتركون كثير مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن و أعماله، وقد لا يعلمون أن ذلكم ما أمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع، وإما مغضوبا عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته.

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يدعوه في كل صلاة بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿الفاتحة: 6-7﴾. ولهذا نزه الله نبيه عن هذين فقال تعالى:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 1-4]، فالضال الذي لا يعلم الحق بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به كما عليه النصارى قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77].

والغاوي الذي يتبع هواه وشهواتهم علم هب أن ذلك خلاف الحق كما عليه اليهود، قال تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنْ آيَاتِنَا الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآءَآءَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 146].

وقال تعالى: ﴿وَأْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَأَنْسَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكِنِّيهِ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّعَ هَوَاهُ فَهَلْهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175-176].^(١)

(١) ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس، جامع الرسائل، مرجع سابق، ج1، ص228، وينظر: الطهطاوي، منهاج الأبرار مرجع سابق، ص179، وينظر: المتولي الشعراوي، التوبة، مرجع سابق، ص27.

المطلب الرابع : حكم التوبة:

إن الدارس لنفسية الإنسان يرى مدى حاجته للتوبة، إذ إن طبيعة الإنسان مهياة لارتكاب الذنب فهو لا يخلو من معصية أبدًا ، فما من عبد إلا وقد اقترف إثماً، فعلاً أو ذنباً، ولكن تتفاوت مقادير المعاصي بين الناس.

ومن فضل ورحمة الله تعالى على عباده أنه جعلها واجبة في حق كل مسلم، فمن أقوال العلماء على وجوبها:

قال الإمام القرطبي: "واتفقت الأمة على أن التوبة، فرض على المؤمنين، وهي فرض على كل الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان".⁽¹⁾

وقد أكد الإمام النووي رحمه الله على وجوب التوبة بقوله: "واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي".⁽²⁾

وقال أبو حامد الغزالي: "اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات".⁽³⁾

وبينها الإمام الغزالي رحمه الله: " أن من أراد أن يعرف وجوب التوبة فعليه أن ينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي ،ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة، فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد، والنجاة من الهلاك الأبد ،فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى".⁽⁴⁾

وقيل: "أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستغني عنها أحد من البشر، لأنه لا يخلو أحد عن معصية الجوارح، فإن خلا عنها فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، وإن خلا عن ذلك فلا يخلو من وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا منها لا يخلو عن غفلة

(1) ينظر: القرطبي، جامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، مرجع سابق، ج5، ص90.

(2) النووي، أبو زكريا محي الدين، المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج. ج17 (ط:1؛ مصر: المطبعة المصرية بأزهر، 1329هـ/1930م)، ص25.

(3) الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج4، ص4.

(4) المرجع نفسه، ج4، ص4.

وتقصير في العلم بالله عز وجل بصفاته وأفعاله، كل ذلك على قدر منازل المؤمنين في أحوالهم ومقاماتهم، فلكل حال طاعات وذنوب، والذنوب تحتاج إلى توبة".⁽¹⁾

وعلى هذا ينبغي أن يقدر هذا الحس عند علمائنا الأخيار بمكانة وأهمية التوبة، وأنها واجبة على الفور.

وشأن العلماء في أمنهم أنهم بها وهبهم الله تعالى من سعة العلم، وأنهم يستشعرون الخطر على أمتهم أكثر من غيرهم، فهم لا يدخرون جهداً في التوضيح والبيان والتنبيه، والحث على التوبة إلى الله تعالى، وبيان مقام التوبة وشرفها، وبيان وجوب المسارعة بها، فيؤدي تأجيلها إلى المهالك فليس أضر على الأمة من معاصيها وذنوبها .

ومما يؤكد ما ذهب إليه العلماء الأدلة التالية :

- وقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31].

- وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا رَبَّنَا نُورَنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحریم: 8].

- وقول النبي ﷺ : " يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة".⁽²⁾

فمن خلال ما تقدم من أقوال العلماء تبين أنه لا خلاف بينهم في وجوب التوبة .

وإذا كانت التوبة واجبة ، كان ما يتوصل به إليها واجبا، فمعرفة الذنوب واجبة، أي معرفة آثارها وأخطارها القريبة والبعيدة، والعاجلة والآجلة، وبهذه المعرفة يفر المذنب منها ليتوب إلى الله . والذنوب هي المعاصي عبارة عن كل أمر خالف أمر الله تعالى في ترك أو فعل أو قول.

(1) عبد القادر بن موسى الجليلاني، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل. تخريج: محمد خالد عمر. ج1 (ط: 1؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1416هـ، 1996م)، ص 159، 160.

(2) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج، مرجع سابق، ج 17 ، ص 24

المطلب الخامس: شروط التوبة

التوبة إلى الله تعالى من أعظم مقامات الدين وأجلها؛ لأنها تزيل العوائق التي تقوم بين العبد وربّه تلك العوائق الكامنة في النفس من شهواتها ونزواتها، ولا تكون التوبة صحيحة مقبولة، حتى تتحقق فيها شروط تثبت صدق التائب في توبته، وإنابته إلى ربّه عز وجل.

فقد ذكر العلماء شروطا للتوبة مأخوذة من الآيات والأحاديث، فنذكر منها:

1- الإخلاص:

أن تكون خالصة لله تعالى لأن الله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا له وحده مبتغى به وجهه

وموافقا أمره بإتباع رسوله ﷺ، فلا بد أن يكون العمل خالصا لله تعالى صوابا أي موافقا للسنة.⁽¹⁾

فإخلاص العبادة لله تعالى، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، هو دين الملة المستقيمة.

2- الندم على ما فات :

الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال والعزم ألا يعود للذنب في المستقبل، فالتوبة النصوح لا تتحقق إلا بالندم ندم الأسف والحزن على ما بدر منه من المعاصي، ندما يوجب التذلل والانكسار بين يدي الله تعالى والإنابة إليه، ومن هنا فلا يعد تائبا ونادما ذلك الذي يتحدث بمعاصيه السابقة ويفتخر بذلك ويتباهى به، بل هذا من المجاهرة.⁽²⁾

(1) ينظر: صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص21.

(2) ينظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج4، ص4، وينظر: علي أحمد الطهطاوي، منهاج الأبرار شرح كتاب التوبة والاستغفار لشيخ الإسلام بن تيمية، مرجع سابق، ص9، وينظر: النووي، أبو زكريا محي الدين، رياض الصالحين. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (ط:3؛ بيروت: مؤسسة الرسالة، 1419هـ، 1998م)، ص33، وينظر: أبو إسماعيل الهروي، منازل السائرين، ج1 (لا.ط؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1006هـ، 1079م)، ص159، وينظر: ابن رجب الحنبلي، ابن القيم، أبي أحمد الغزالي، تركية النفوس وترتيبها كما يقرره علماء السلف، جمع: أحمد فريد. تحقيق: ماجد بن أبي الليل، (ط:1؛ بيروت، دار القلم، 1405هـ، 1985م)، ص136، وينظر: المتولي الشعراوي، التوبة، مرجع سابق، ص29، وينظر: صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص23.

3- الإقلاع عن المعصية :

لأن النفس مشغولة بلذة المعصية قلما تخلص عمل الخير؛ فيجاهد التائب نفسه لاقتلاع جذور الشر من قلبه، حتى يصبح نقيا خالصا صافيا، تصدر عنه أعمال الخير بنية صالحة مقبولة عند الله، فإن كانت المعصية بفعل محرم تركه في الحال، وإن كانت بترك واجب فعله في الحال - إن كان مما يمكن قضاءه - وإن كانت مما يتعلق بحقوق الخلق تخلص منها وأداها إلى أهلها أو استحلبهم منها.⁽¹⁾ والإقلاع عن الذنوب و هجرها يجب أن يكون لله تعالى، لا لشيء سواه فإن أقلع عنها لأنها ضارة بصحته، أو بماله، فليس بذلك بتوبة وإنما هو عمل بهوى النفس لا لوجه الله تعالى، كما في قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحریم: 8] .

ولم يقل: توبوا حفظا لصحتكم ولا لأموالكم، فمراعاة الصحة والمال ليس هدفا رئيسيا للتوبة، وإنما هو أمر ثانوي لا يجوز أن يتجه إليه نية التوبة.⁽²⁾

4- الإصرار والعزم الجازم على عدم العودة إلى المعاصي:

والإصرار: هو عقد القلب على شهوة الذنب، والاستقرار على المخالفة، والعزم على عدم العودة ويعتمد أساسا على إخلاص هذا العزم والصدق فيه، وشرط بعض العلماء عدم المعاودة الذنب.⁽³⁾ ولأن التوبة مع الإصرار توبة الكذابين، الذين يهجرون الذنوب هجرا مؤقتا، يستغلون فيها الفرص المواتية لإعادة الذنب والمعصية، وقد بقيت في حلاوته في قلوبهم، يتمنون مفارقتها ما وجدوا السبيل إليه وقد شرط الله لوجوب المغفرة ودخول الجنة عدم الإصرار على فعل الفاحشة وظلم النفس.

(1) صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص22، وينظر: المتولي الشعراوي، التوبة، مرجع سابق، ص29.

(2) المحاسبي، الحارث بن أسد، التوبة، (لا.ط؛ القاهرة: دار الفضيلة، د.ت)، ص53.

(3) ينظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ج4، ص4، وينظر: ابن رجب الحنبلي، ابن القيم، أبي حامد الغزالي، تزكية النفوس وترتيبها كما يقرها علماء السلف، مرجع سابق، ص136، وينظر: النووي، رياض الصالحين، مرجع سابق، ص33، وينظر: المحاسبي، التوبة، مرجع سابق، ص56.

حيث قال :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: 135 - 136].⁽¹⁾

5- أن التوبة كما تكون بالقلب واللسان تكون أيضا بالعمل الصالح الذي يكون ترجمة عملية لما في قلب الإنسان، إذ العمل الصالح ينشئ التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية فيعوض التائب ما صرفه من عمره في اللهو والمعصية بالعمل الصالح وفعل الطاعات، ليمحق بذلك أثر الحقيقة والسيئات، فإن تطهير النفس من السيئات بالتوبة أفضل وأولى بالعبد من عمل النوافل وأعمال البر الأخرى.⁽²⁾

6- أن يستمر التائب في توبته ولا يأتي بما ينقضها ويخالفها، إذ الاستمرار في التوبة شرط في صحة كمالها ونفعها.

7- ومن شروط التوبة أيضا أن تصدر في زمن قبولها. وهو ما قبل حضور الأجل، وطلوع الشمس من مغربها، فالذين يعملون السيئات، ويصرون على المعاصي، ويسوفون في التوبة، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال: إني تبت الآن، فهؤلاء توبتهم غير صحيحة؛ بل هي مردودة؛ لأنها لم تنشأ عن خوف الله وَعَجَلِك وإنما هي توبة اضطرار حين حضر الأجل، ولم يعد هناك متسع لارتكاب الذنوب.

ومما يدل على عدم قبولها قول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَرَاءُ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: 17 - 18].

(1) ينظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مرجع سابق، ج17، ص59، وينظر: ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين مرجع سابق، ج1، ص197، وينظر: أبو إسماعيل الهروي، منازل السائرين، ج1، ص159، وينظر: صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص24.

(2) ينظر: ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج1، ص202، وينظر: الحارث بن أسد المحاسبي، التوبة، مرجع سابق، ص5، وينظر: صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص25.

والمعنى : أن الله ﷻ إنما يقبل التوبة ممن عمل السوء بجهالة - كل من عصى ربه فهو جاهل، حتى ينزع عن الذنب - ثم يتوب قبل الغرغرة. (1)

وأما متى خرجت الروح في الحلق ، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس، وصار في حين اليأس - كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق - فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان فإن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع. (2)

8- ومن شروط التوبة أيضا أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي، فلا بد من أن يخرج منه، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به، سواء كان حقا ماليا ونحوه - إن كان موجودا - أو رد مثله إن كان معدوما، لأنه محض حق يجب أدائه إلى صاحبه، لقوله ﷻ "من كانت له مظلمة لأخيه، من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه". (3)

ومما ينبغي الإشارة إليه : أن المظلمة إن كانت قدحا بغيبة أو نيمه أو قذفا، ولم يغلب على ظن القادح حصول مفسدة بإعلام المقدوح فيه، فإن من شروط التوبة إعلامه بذلك، وأما إن غلب على ظنه حصول مفسدة، فإنها يكفي في ذلك توبته بينه وبين الله تعالى وأن يذكر المقدوح فيه في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره من الغيبة، فيبدل غيبته بمدحه، والثناء عليه، وذكر محاسنه، ويبدل قذفه بذكر عفته وإحصائه، ويستغفر له بقدر ما اغتاب. (4)

وبهذا يتبين أن التوبة كل متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه، كالمركب والأساس يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره، فمن أتى بشرط وأغفل آخر؛ لا يعتد بتوبته ما لم يحقق بقية الشروط.

(1) ينظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير القرآن العظيم. تحقيق: محمد حسين شمس الدين. ج2 (ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ)، ص206.

(2) المرجع نفسه، ج2، ص208.

(3) أخرجه: محمد بن إسماعيل البخاري ت256هـ، الجامع الصحيح. ضبط وترقيم وشرح وفهرسة: د. مصطفى البغا. ج6 (ط:3؛ بيروت: دار ابن كثير، 1407هـ، 1987م). كتاب المظالم، باب: "من كانت به مظلمة عند الرجل فحللها له، هل يبين مظلمته"، رقم الحديث: 2219، ص359.

(4) ينظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج، مرجع سابق، ج17، ص59، وينظر: صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله مرجع سابق، ج1، ص34، 33.

المطلب السادس: فضائل التوبة:

التوبة من الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب، وعلامة الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول إقدام المرئيين، ومفتاح استقامة المائلين ومطلع الاصطفاء والاجتناب للمقربين. ومنزل التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه، ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته،⁽¹⁾ وقد قال الله تعالى :

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31].

وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان، وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرهم، ثم علق الفلاح بالتوبة وأتى بكلمة "لعل" إيذاناً بأنكم إذا تبتتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم .

ومن فضل الله ورحمته الواسعة فتح لعباده أبواب الرجاء في عفوه ومغفرته، وأمرهم أن يلجأوا إلى ساحات كرمه وجوده، طالبين تكفير السيئات وستر العورات، وقبول توبتهم، لا يطردهم من رحمة الله طارد، ولا يوصد بينهم وبين الله باب.

فيكون للتوبة فضائل جمّة، وفوائد متعددة، وأسرار بديعة، تظهر من خلال الآيات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومن تلك الفضائل :

1- التوبة سبب للفلاح : لقوله تعالى:

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31].

قال أبو السعود : " تفوزون بذلك بسعادة الدارين ".⁽²⁾

وقال ابن كثير: " أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة؛ فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهي عنه ".⁽³⁾

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج1، ص198.

(2) أبو السعود، العمادي محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. ج6 (لا.ط؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي د.ت)، ص171.

(3) ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج6، ص47.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يتلذذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن - إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه".
ولو حصل له كل ما يتلذذ من المخلوقات لم يطمئن، ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه.

وبذلك يحصل له الفرح، والسرور، واللذة، والنعمة، والسكون، والطمأنينة.⁽¹⁾

2- وبالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحا كفر الله بها جميع ذنوبه وخطاياها.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: 8].

3- وبالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسنت التوبة بدل الله سيئات صاحبها حسنات، وذلك فضل من الله وكرمه ورحمته.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 70].

قال ابن القيم في هذه الآية: "وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح وهو حقيقة التوبة.

(1) تقى الدين أبو العباس الدمشقي، الفتاوى الكبرى لابن تيمية. ج5(ط:1؛ لا.م: دار الكتب العلمية، 1408هـ-1987م)، ص188، 189.

قال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " ما رأيت النبي " فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرح بهذه الآية لما أنزلت وفرحه نزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: 1-2].⁽¹⁾

قال ابن القيم: "واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين: فقال بن عباس وأصحابه هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيماناً، وبالزنا عفة وإحصاناً وبالكذب صدقاً، وبالحيانة أمانة".

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة بُدِّلوا عوضها صفاتٍ جميلةً، وأعمالاً سالحة، كما يبذل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين: " هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة"⁽²⁾

ثم قال ابن القيم بعد أن تكلم على القولين السابقين: "إذا علم هذا فزوال الموجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح وهي أقوى الأسباب، وتارة يكون باستيفاء الحق من هو تطهيره في النار؛ فإذا تطهر بالنار وزال أثر الوسخ والخبث عنه أعطي مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة؛ لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله.

وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل؛ فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول".

وقال: "التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة؛ إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة؛ فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة؛ فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار؛ فتأمل؛ فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وهذا من أسرار التوبة ولطائفها".⁽³⁾

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق ج1، ص310.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص310.

(3) المرجع نفسه، ج1، ص311.

4- التوبة سبب للمتاع الحسن، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا

إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:3]

5- أن الله يحب التوبة والتوابين: فعبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله وأكرمها؛ فإنه ﷻ

يحب التوابين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:222].

قال ابن القيم: "ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه؛ فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوه من التوبة وزيادة محبته لعبده؛ فإن للتائبين عنده محبة خاصة".⁽¹⁾

6- حصول الذل والانكسار لله: ففي التوبة من الذل، والانكسار، والخضوع، والتذلل لله ما هو أحب إلى الله من كثير من الأعمال الظاهرة - وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة - فالذل والانكسار روح العبودية، ولُبُّها.

وحصول ذلك للتائب أكمل له من غيره؛ فإنه قد شارك من لم يذنب فيذل الفقر والعبودية والمحبة وامتاز عنه بانكسار قلبه.⁽²⁾

ولأجل هذا كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فعن أبي هريرة أن ﷺ قال: "أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء".⁽³⁾ لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

ولعلّ هذا هو السر في استجابة دعوة المظلوم، والمسافر، والصائم؛ للكسرة في قلب كل واحد منهم فإن لوعة المظلوم تُحْدِثُ عنده كسرة في قلبه، وكذلك المسافر في غربته يجد كسرة في قلبه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس السَّبْعِيَّة الحَيَوَانِيَّة.

⁽¹⁾ ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق ج1، ص306.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ج1، ص306.

⁽³⁾ أخرجه: مسلم بن الحجاج النيسابوري ت261 هـ، الجامع الصحيح . ج2(لا.ط؛ بيروت: دار الجيل، دار الأفاق الجديدة د.ت). كتاب الصلاة، باب: " ما يقال في الركوع والسجود"، رقم الحديث: 1111، ص49.

7- أن الذنب قد يكون أنفع لعبد إذا اقترنت به التوبة من كثير من الطاعات: ذلك أن الله على القلوب أنواعاً من العبودية، من الخوف، والخشية، والإشفاق، والوجل وتوابعها من المحبة، والإنابة، وابتغاء الوسيلة.

وهذه العبوديات لها أسباب تُهيئها وتبعث عليها، وكلما قيض الرب تعالى عبده من الأسباب الباعثة على ذلك، المهيجة له فهو من أسباب رحمته، ورُبَّ ذنب قد هاجل صاحبه من الخوف والإشفاق، والوجل، والإنابة، والمحبة مالا يهيجه كثير من الطاعات، وكم من ذنب كان سبباً لاستقامة العبد، وفراره إلى الله، وبعده عن طريق الغي.

قال ابن القيم: "وهذا معنى قول بعض السلف: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار.

قالوا: وكيف ذلك؟

قال: يعمل الذنب فلا يزال نُصِبَ عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشى ذكر ذنبه؛ فيحدث له انكساراً، وتوبة، واستغفاراً، وندماً؛ فيكون ذلك سبباً لنجاته.

ويعمل الحسنة، فلا تزال نصب عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومِنَّةً، فتكون سبباً لهلاكه.

فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات، وحسنات، ومعاملات قلبية من خوف الله، والحياء منه والإطراق بين يديه مُنْكَسِئاً رأسه خجلاً، باكياً، نادماً.⁽¹⁾

وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة، وكبراً وازدراءً للناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار.

ولا ريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته، المانّ بها وبجاله على الله وعلى عباده، وإن قالب لسانه خلا فذلك؛ فالله شهيد على ما في قلبه، ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه، ويخضعوا له، ويجد في قلبه بُغْضَةً لمن لم يفعل به ذلك.

ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً؛ ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه، ويعرف له حقه، متطلباً لعيبه في قال بحمية لله، وغضب له.⁽²⁾

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج1، ص307.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص307.

وإذا قام بمن يعظمه، ويحترمه، ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا فتح له باب المعاذير والرجاء، وأغمض عنه عينيه وسمعه، وكفل لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تُكفَّر بإجلال هو تعظيم هو إكرامه إياه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنب يكسره به، ويُعزِّفه قدره، ويكفي به عباده شره، وينكس به رأسه، ويستخرج بهداء العجب، والكبر، والمنة عليه، وعلى عباده؛ فيكون هذا الذنب أن فعله من طاعات كثيرة، ويكون بمنزلة شر بالدواء؛ ليستخرج به الداء العضال.⁽¹⁾ وهذا سر بديع من أسرار التوبة.

8- معرفة فضل الله في مغفرته فإن المغفرة فضل من الله وإلا فلو أخذك بمحض حقه كان عادلاً محموداً وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك فيوجب له ذلك شكراً ومحبة وإنابة ومعرفة باسمه "الغفار".⁽²⁾ وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم حيث يقول: "الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم، سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة".⁽³⁾ هذه بعض فضائل التوبة، وأسرارها العظيمة، ومن خلال ذلك يتبين لنا عظم شأن التوبة ومكانتها وكبير منزلتها عند الله، كما يتبين أيضاً حكمة الله تعالى فيخلق المعاصي، وتقدير السيئات.

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج1، ص307، 308.

(2) ابن رجب الحنبلي، ابن القيم، أبي حامد الغزالي، تركيبة النفوس، مرجع سابق، ص144.

(3) أخرجه: البخاري في صحيحه، مرجع سابق، كتاب الدعوات، باب التوبة، ج5، رقم الحديث: 5950، ص2325.

المبحث الثاني: التعريف بالسورة.

المطلب الأول: بين يدي السورة.

أولاً: عدد آيات السورة وبيان مكيتها ومدنيها.

إنّ آيات سورة التوبة هي مائة وتسع وعشرون عند الكوفيين ومائة وثلاثون عند الباقيين.⁽¹⁾

ومنهم من يقول: "مائة وسبع وعشرون آية"⁽²⁾

أما سبب الاختلاف في عدد الآيات بين الكوفيين والباقيين: الشامي والمكي والمدنيين والبصري.

اختلافهما في ثلاث آيات وهي:

1- عدّ البصري: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 03].

2- وعدّ الشامي: ﴿إِلَّا نَنفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا﴾ [التوبة: 39].

3- وعدّ المكي والمدنيان: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمُ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [التوبة: 70].⁽³⁾

⁽¹⁾ ينظر: أبي القاسم محمد النويري، شرح طيبة النشر في القراءات العشر. تحقيق: مجدي محمد سرور. ج2 (ط: 1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1424 هـ، 2003 م)، ص357، وينظر: الفيروز آبادي، محمد الدين أبو طاهر. تحقيق: محمد علي النجار. ج1 (لا. ط؛ القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1416 هـ، 1996 م)، ص827، وينظر: الألوسي، محمود أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. تحقيق: علي عبد الباري عطية. ج5 (ط: 1؛ بيروت، دار إحياء التراث العلمي، 1415 هـ)، ص236.

⁽²⁾ الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. ج2 (ط: 1؛ دمشق، بيروت: دار ابن دار الكلم الطيب، 1414 هـ)، ص378.

⁽³⁾ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، فنون الأفتان في علوم القرآن. تحقيق: حسن ضياء الدين عنتر. ج1 (ط: 1؛ بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1408 هـ، 1987 م)، ص285.

أما السورة فهي مدنية بإجماعهم.⁽¹⁾

سوى الآيتين اللتين في آخرها لقد جاءكم رسول من أنفسكم فإنها نزلت بمكة.⁽²⁾

ثانياً: أسماؤها.

تُعد سورة التوبة من حيث ترتيبها في المصحف العثماني التاسعة، وتقع في الجزء الحادي عشر منه نزلت بعد سورة الفتح. دونت بعد سورة الأنفال وقبل سورة يونس، وهي تعد أكثر السور تسمية في القرآن حسب ما تناهى إلينا من كلام الصحابة والتابعين وتابعيهم وعلماء التفسير وعلوم القرآن، وعلى وجه العموم فإن هذه الأسماء تدل على حسب ما اشتملت واحتوت عليه السورة من الصفات والمعاني والقواعد والأحكام والمبادئ في موضوعات السورة المختلفة.

فإنّ للسورة أسماء عديدة:

1. سورة التوبة:

سميت بهذا الاسم العظيم لأن فيها التوبة على المؤمنين ولتناولها موضوع التوبة من أول السورة التي رغب الله تعالى فيها عبادة، ولم يفقدتهم الأمل في التوبة، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَإِنْ تَابْتُمْ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ^ط﴾ [التوبة:3].⁽³⁾

ولأن وردت فيها توبة الله تعالى على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهذا حدث عظيم.

(1) ينظر: الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ج2، ص378، وينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3 (ط:17؛ بيروت، القاهرة: دار الشروق، 1412هـ)، ص1564، وينظر: الطبري، محمد ابن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن (تفسير الطبري). تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. ج11 (ط:1؛ لا. م: دار هجر، 1422هـ، 2001م)، ص303.

(1) ينظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، زاد الميسر في علم التفسير. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. ج2 (ط:1؛ بيروت: دار الكتاب العربي، 1422هـ)، ص230، وينظر: البيضاوي، ناصر الدين بن محمد الشيرازي. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ج3 (ط:1؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418هـ)، ص70.

(3) ينظر: الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ج2، ص378، وينظر: الزمخشري، أبو القاسم بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ج2 (ط:3؛ بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ)، ص241، وينظر: ابن الجوزي، زاد الميسر علم التفسير، مرجع سابق، ج2، ص230.

2. سورة براءة:

سميت بهذا الاسم العظيم في أكثر المصاحف، وفي كلام السلف، وهي تشير إلى غضب الله ورسوله على من أشرك بالله، وجعل له ندا وشريكا، وهذان المشهوران بين الناس.⁽¹⁾

3. الفاضحة:

عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: قلت لابن عباس رضي الله عنه: سورة التوبة؟ قال: التوبة؟ قال: (بل) الفاضحة، مازالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أن لا يبقى منّا أحد إلا ذكر فيها.⁽²⁾ فسميت السورة بهذا الاسم وذلك لفضحها سلوك المنافقين وما انطوت عليه صدورهم من الخسة والندالة.⁽³⁾

4. البحوث:

وكانت السورة الكريمة بآياتها البيّنات، تبحث عن أسرار المنافقين وصفاتهم، وذلك استعدادا لفضحهم والتخلص منهم.

5. المبعثرة:

والمبعثرة: البحث، ولكونها بعثرت أخبار الناس وكشفت عن أسرارهم، أي أخرجتها من مكانها، وهي مبرئة من النفاق.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، ج2، ص230، وينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج8، ص61، وينظر: الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ج2، ص378.

⁽²⁾ أخرجه: مسلم في صحيحه، مرجع سابق، كتاب التفسير، باب: في سورة براءة، ج8، رقم الحديث: 7743، ص245.

⁽³⁾ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج8، ص61، وينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، ج2، ص230.

⁽⁴⁾ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج8، ص61، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10 (لا.ط؛ تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م)، ص، وينظر: الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ج2، ص378، وينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، ج2، ص230.

6. المقشقة:

ولأنها تقشقش من النفاق، أي تبرئ منه، والقشقة معناه التبرئة.⁽¹⁾

7. الحافرة:

يتبين من هذا الاسم العظيم أنها تحفر عن أسرار المنافقين والمجرمين وتنقب عن خفياهم ومخازيهم وإثارة أسرارهم لكشف ظاهر سلوكهم وباطنه، فأظهرته للمسلمين ولذلك دعت بالحافرة.⁽²⁾

8. المثيرة:

فيظهر هذا الاسم المثير كل خفايا نفوس المنافقين، وعوراتهم وأظهرتها، بحيث لا يبقى مما أضمرنا إلا أظهر الله أثره، وإن كان خافيا، فلا بد من أن تظهر علامات النفاق لدى المنافقين مهما حاولوا إخفاءها، من خلال الطاعات التي لا يقوى عليها المنافقون.⁽³⁾

9. المشكلة:

لإعلانها الحرب بشدة على المنافقين والمشركين، وكيف نكل الله بالمجرمين في الدنيا وتوعدهم بالعذاب الأليم في الآخرة، ليكونوا بهذا النكال عبرة لهم ولغيرهم.⁽⁴⁾

(1) ينظر: الخازن، علاء الدين بن عمر، الباب التأويل في معاني التنزيل. تصحيح: محمد علي شاهين. ج2 (ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ)، ص332، وينظر: القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل. تحقيق: محمد باسل عيون السوء. ج5 (ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ)، ص343، وينظر: النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان. تحقيق: زكريا عميرات، ج3 (ط:1؛ بيروت: الدار الكتب العلمية، 1416هـ)، ص427، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج10، ص95.

(2) ينظر: الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ج2، ص378، وينظر: ابن الجوزي، زاد الميسر في علم التفسير مرجع سابق، ج2، ص230، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج10، ص96.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج10، ص96.

(4) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص96، وينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، مرجع سابق، ج2، ص24، وينظر: القاسمي محاسن التأويل، مرجع سابق، ج5، ص343، وينظر: السيوطي، عبد الرحمان بن جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن. ج1 (لا ط؛ القاهرة: دار الحديث، د.ت)، ص152.

10. المدممة:

لأنها تبشر أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرذم بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم.⁽¹⁾

11. العذاب:

بسبب برادة السورة من المنافقين والمشركين، ودعوها لقتالهم دون رحمة أو شفقة عليهم، وذلك لأجل تعذيبهم بسبب سلوكهم وكفرهم لتقصيرهم بحق الله، وعدم وفائهم للعهد والمواثيق التي اتخذوها ستارا للخيانة والغدر.⁽²⁾

فمن حذيفة رضي الله عنه قال: " التي تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب، والله ما تركت أحدا إلا نالت منه، ولا تقرأون منها مما كنا نقرأ إلا ربعا".⁽³⁾

10. المنقرة:

لأنها نقرت قلوب المشركين، لعله يعني من نوايا الغدر بالمسلمين والتماهي على نقض العهد وهو من نقر الطائر إذا أنفى بمنقاره موضعا من الحصى ونحوه ليبيض فيه.⁽⁴⁾

12. المشردة:

يقول الله تعالى: ﴿فَأِمَّا تَثَقَّفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: 57].

مما يجعلهم في خوف دائم، وهذا ما بينته وأثبتته سورة التوبة،

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ...﴾ [التوبة: 64].

فكانت الآيات بمثابة الطرد والتشريد لكل منافق معلوم النفاق، ومن خلفه ليكون الفضح والنبد لكل

⁽¹⁾ ينظر: النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، مرجع سابق، ج1، ص42، وينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص153.

⁽²⁾ ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، مرجع سابق، ج2، ص241.

⁽³⁾ الطبراني، أبو القاسم سليمان: المعجم الأوسط. تحقيق: طارق بن عوض الله. ج2 (لا.ط؛ القاهرة: دار الحرمين، 1415هـ)، ص85.

⁽⁴⁾ ينظر: القاسمي، محاسن التأويل، مرجع سابق، ج5، ص353.

من يصر على الكفر والطغيان، ويظهر العداوة للمؤمنين، ومظاهرة الكافرين.⁽¹⁾

13. المخزية:

لقد فضحتهم وكشفت مستور عيوبهم. وبينت مكنون صدورهم، فأخزتهم وأذلتهم، كما في قوله تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 02].⁽²⁾

14. المشددة:

فيتبين من معنى هذا الاسم كم فيه من الغلظة والقسوة والشدة على المجرمين عموماً، والمنافقين على وجه الخصوص، وكيف شدد الله عليهم فنكل بهم وفضحهم وأخزاهم.⁽³⁾ والخلاصة أن هذه عدد أسماء سورة التوبة، وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين، وليس في السور أكثر أسماء منها.

المطلب الثاني: سبب نزول السورة.

ذكر ابن الجوزي أن سبب نزولها: "أخذت العرب تنقض عهوداً بنتها مع الرسول الله ﷺ فأمره الله تعالى بإلقاء عهودهم إليهم، فأنزل الله تعالى براءة في سنة تسع، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم ليقوم للناس الحج في تلك السنة، وبعث معه صدراً من (براءة) ليقرأها على أهل الموسم، فلما سار دعا رسول الله ﷺ علياً، فقال: "أخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس بذلك"، فخرج علي على ناقه رسول الله ﷺ الغصباء حتى أدرك أبا بكر فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله، أنزل في شأنني شيء؟ قال: "لا، ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني، أما ترضى أنك كنت صاحبي في الغار، وأنتك صاحبي على الحوش؟" قال: بلى يا رسول الله. فسار أبو بكر أميراً على الحج. وسار علي ليؤذن ب "براءة".⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ينظر: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص153، وينظر: الزنجشيري، تفسير الكشاف، مرجع سابق، ج2، ص241.

⁽²⁾ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج10، ص96، وينظر: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص153.

⁽³⁾ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج10، ص96.

⁽⁴⁾ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، ج2، ص232.

ومنها ما نزل في تبوك، ومنها ما نزل في طريق عودته ﷺ.

وقيل غير ذلك، منها: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ﴾ [التوبة: 34]. نزلت في بعض أسفاره

ومنها: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ [التوبة: 42]. نزلت في غزوة تبوك.

ومنها: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ [التوبة: 65] نزلت في غزوة تبوك.

ومنها قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [التوبة: 113]. نزلت لما خرج معتمرا. هبط من ثنية

عسفان.⁽¹⁾

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج، ص 80.

المطلب الثالث: مناسبات السورة.

إنّ سورة براءة- كغيرها من سور القرآن- لها ترابط وعلاقة مع السور التي قبلها في ترتيب المصحف وعلاقتها مع ما بعدها من السور، كما يوجد أيضا تناسب وترابط في داخل السورة ذاتها، ما بين الافتتاحية والخاتمة، وما بين السورة ومحورها وهذا كله يظهر مدى ترابط السور وآي القرآن الذي جاء ترتيبها في المصحف بحكمة وعناية من الله تعالى- ولم يكن ترتيبها جزافا. فالقرآن قبل نزوله من اللوح المحفوظ كان مرتبا، ثم نزل على محمد ﷺ منجما، ثم رتب في الأرض كترتيبه في السماء.

يقول الزركشي: "وأعلم أن المناسبة علم شريف، تجزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول... لهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقتة بالقبول".⁽¹⁾

أولا: مناسبة السورة لما قبلها (سورة الأنفال)

المتأمل في الآيات التي ختمت بها سورة الأنفال والآيات التي بدأت سورة التوبة يجد أن بينها مناسبة عظيمة. وهذا مما جعل بعض الصحابة يظنون أنها كالسورة واحدة فيكون وجه الصلة والترابط بين سورتي الأنفال والتوبة.

"فهي كالمتممة لها في وضع أصول العلاقات الدولية الخارجية والداخلية، وأحكام المعاهدات والمواثيق إلا أن في الأنفال بيان العهود والوفاء بها وتقديسها، وفي براءة نذ العهود، وذكر في السوريتين صدّ المشركين عن المسجد الحرام، والترغيب في إنفاق المال في سبيل الله، وتفضيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب وبيان أوضاع المنافقين ومرضى القلوب، فما بدئ به في الأولى أتم في الثانية".⁽²⁾

(1) الزركشي، أبو عبيدة الله، البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ج1 (لا.ط؛ بيروت: دار المعرفة، 1391هـ، 1911م)، ص35.

(2) ينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المسير في العقيدة والشريعة والمنهج. ج10 (ط:2؛ دمشق: دار الفكر المعاصر، 1418هـ)، ص92 وينظر: المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي. ج10 (ط:1؛ مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1365هـ، 1946م)، ص50.

يقول الشيخ البقاعي: عن مناسبة سورة الأنفال بسورة التوبة "ولما كانت مناسبة أولها، الداعي إلى البراءة ممن يخشى نقصه، لآخر الأنفال المبين لمن يصلح الولاية المختم بشمول العلم في حد عظيم من الظهور مع ما تقدم من بيان مناسبة الأعراف لأول الأنفال قدمت الأنفال مع قصرها على براءة مع طولها واشتباها أمرها على الصحابة في كونها سورة مستقلة أو بعض سورة كما قدمت آل عمران مع قصرها على النساء لمثل ذلك من المناسبة فكان ما ذكر في براءة من البراءة والتولي. شرحا لآخر الأنفال".⁽¹⁾

من وجوه التناسب بين سورتي " الأنفال " و " التوبة".

1. ذكرت سورة "الأنفال" بعض صفات المشركين. وأتبع في سورة "التوبة" بعض صفات المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، ومن نقضهم للعهود، وغدرهم وخيانتهم. وغيرها من الصفات الكثيرة التي اتسم بها المشركون والمنافقون.

2. ذكر في سورة "الأنفال" الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله، وجاء مثل هذا الترغيب بأبلغ من ذلك وأوسع في سورة التوبة.⁽²⁾

3. تحدثت سورة الأنفال عن صدّ المشركين عن المسجد الحرام

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعِدُّبَهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ...﴾ [الأنفال:34]

وفي التوبة عن منع المشركين أن يعمرؤا مساجد الله نتيجة مدهم عن البيت الحرام.

يقول ابن كثير: "ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرؤا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم ، وقال في التوبة:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ

يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18].

(1) البقاعي، إبراهيم بن أبي بكر ، نظم الدور في تناسب الآيات والسور. ج8(لا.ط؛ القاهرة: دار الكتاب الإسلامي د.ت)،ص255،256.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار. ج10(لا.ط؛ مصر: الهيئة المصرية العامة،1990م)،ص133.

فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد.⁽¹⁾

4. ذكرت العهود في سورة "الأنفال"، وفي التوبة نبذ العهود وتفصيل الكلام فيها، إلا أن الأنفال تناولت العهود بأن يأخذ المسلمون حذرهم في معاملة المشركين وعهودهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال:56].

وأمر نبذ عهودهم إذا ما لا حظ المسلمون خيانة، من المشركين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال:58].

وفي سورة التوبة "أمر بالوفاء الكامل من قبل المشركين بعهودهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:4]. ثم رد عهودهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ [التوبة:7].⁽²⁾

5. ختمت سورة الأنفال بوعد الله المؤمنين بالمغفرة لأنهم يتصفون بالإيمان، وما يشمله كالهجرة والجهاد في سبيل وما أعد الله لهم من الرزق الكريم قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:74].

وفي ختام سورة التوبة يصف المؤمنين الصادقين الذين أوقعوا الإيمان حقيقية لصحة أمزجة قلوبهم فزادتهم تلك السورة إيمانا بإيمانهم الى مكان من الإيمان.⁽³⁾

ومن خلال ما سبق، فإنه يوجد تناسب ورابطة عضوية وموضوعية بين السورتين الكريمتين فموضوعها واحد، وهو القتال، إلا أن سورة تمثل أول مراحل تشريع القتال، وأما سورة التوبة فهي تمثل آخر مرحلة من مراحل تشريع القتال.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج4، ص105.

(2) ينظر: المراغي، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج10، ص50.

(3) ينظر: البقاعي، نظم الدور في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج9، ص51.

ثانيا: مناسبة سورة التوبة لما بعدها (سورة يونس).

سورة التوبة مدنية النزول. وسورة يونس مكية النزول.

ومعلوم أن موضوعات السور المدنية مختلف عن موضوعات السور المكية، إلا أنها تتفق وتتحد في الأصول والمبادئ والدعوة إلى الله تعالى، وبالتالي فإن المناسبات بين السورتين كثيرة منها:

1- مناسبة أول سورة التوبة "بأول سورة" يونس:

المقابلة بين بشارة الله تعالى للمشركين في أول سورة التوبة وبشارة الله تعالى للمؤمنين، وذلك أن الله سبحانه أنكر أن يكون للمشركين عهد، بين السبب الموجب للإنكار، وحالهم من غدرهم وخيانتهم. فالمشركون الذين يعرضون عن أوامر الله تعالى يستحقون أن يوجه الله تعالى الخطاب تحفيضا لهم.⁽¹⁾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:3].

وبالمقابل في سورة يونس "خص الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات" أي أحبوا ذلك الوصف وعملوا تصديقا لدعواهم. أي من الأعمال اللسانية وغيرها، بالبشارة بقبول حسناتهم وتكفير سيئاتهم والتجاوز عن هفواتهم وترفع درجاتهم، كما كان إرسال الرسل قبله وكما هو مقتضي العدل في إثابة الطائع، الطائع وعتاب العاصي، لتكون المناسبة بين الإنذار والبشارة، فالإنذار: الإعلام بما ينبغي أن يحذر منه والتبشير: التعريف بما فيه السرور.⁽²⁾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ﴾ [يونس:2].

2- مناسبة آخر سورة التوبة بأول سورة يونس:

ختمت سورة التوبة بذكر صفات الرسول ﷺ، ومن الله تعالى على الناس أن أرسل إليهم رسولا من أنفسهم وصميم قومهم، ويعرفونه بطيب محامده وكريم خلقه

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج8، ص384.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج9، ص67.

ولذلك ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128].

وافتححت سورة "يونس" بتبديد الشكوك والأوهام نحو إنزال الوحي على الرسول ﷺ وبدم من تعجب وأنكر رسالة الرسول ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ [يونس: 2].⁽¹⁾

فالخطاب في الآية الأولى للعرب وأن النبي ﷺ منهم، ومبعوث لهم للعجم، فيكون الخطاب للعالم كله لعموم بعثته ﷺ، فيكون بمعنى ما يأتي في أول سورة يونس التالية في قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ [يونس: 2].⁽²⁾

3- مناسبة آخر سورة التوبة بآخر سورة يونس:

ختم الله تعالى سورة التوبة بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128].

يمنّ الله تعالى على من أرسل إليهم الرسول من أنفسهم لتأييد الحجة بالمنة، ولترغيبهم في إجابة الدعوة، فإن من طبع كل قوم جنب الاختصاص بالفضل والشرف على غيرهم.

قال الإمام القرطبي "من أنفسكم" يقتضي مدحا لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها...

(1) ينظر: وهبة الزحيلي، تفسير المنير، مرجع سابق، ج11، ص94،93، وينظر: مصطفى المراغي، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج11، ص58.

(2) ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج11، ص71.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]. عزيز عليه ما عنتم لا يهم إلا شأنكم، وهو القائم بالشفاعة لكم فلا تهتموا بما عنتم ما أقمتم على سنته، فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة.⁽¹⁾

وختمت سورة "يونس" في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: 108].

فكما قال الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: 108]. أي القرآن

قيل: الرسول ﷺ.

(من ربكم فمن اهتدى): أي صدق محمد وآمن بما جاء به.

(فإنما يهتدي لنفسه): أي لخالص نفسه.

(ومن ضل): أي ترك الرسول والقرآن واتبع الأصنام والأوثان.

(فإنما يضل عليها): أي وبال ذلك على نفسه.

(وما أنا عليكم بوكيل): أي بحفيظ أحفظ أعمالكم إنما أنا رسول الله.⁽²⁾

⁽¹⁾ القرطبي، تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج8، ص302، 303.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ج8، ص388، 389.

المطلب الرابع: المحور الأساسي لسورة التوبة:

إنّ مقصد القرآن أساسا هو الحفاظ على الإنسان كخليفة في الأرض، بحيث جعل له مقومات الخلافة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 20].

فالله تعالى خلق الإنسان لعبادته والامتثال لأوامره، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 52].

فمحور القرآن الكريم كله يدور حول توحيد الله ﷻ فكل سورة منه تتناول جزءا أو أكثر من هذا المحور الأساسي، فسورة التوبة كباقي السور القرآنية، ففي هذه السورة الكريمة براءة الله تعالى ورسوله من المشركين والمنافقين وكل من اختار غير هدي الله ﷻ هو الدرس الكبير في هذه السورة بل هو عنوان هذه السور الذي يربط مواضيعها بعضها ببعض.

يقول سيد قطب: "تضمنت هذه السورة أحكاما نهائية في العلاقات بين الأمة الإسلامية وسائر الأمم في الأرض، ما تضمنت المجتمع المسلم ذاته وتحديد قيمه ومقاماته".⁽¹⁾

ويقول أيضا: "وتحديدا للعلاقات النهائية بين المسلمين والمشركين عامة في الجزيرة مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقدية التي يقوم عليها هذا التحديد، بالأسلوب القرآني الموحى المؤثر، وفي تعبيرات قوية الإيقاع حاسمة الدلالة، عميقة التأثير".⁽²⁾

كما تظهر السورة أهمية الجهاد في سبيل الله، لأن الغفلة عن هذا الأمر الحياتي في ذلك الظرف الحساس تبعث على ضعف المسلمين.

ولذلك أمر الله عباده المؤمنين بقتال الكافرين وجهادهم لإبطال باطلهم ليعذبهم ويخزيهم، ويشف صدور المؤمنين وإحقاق الحق بانتصار المؤمنين عليهم، قال: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْزِلُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14].

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج3 ص1564.

(2) المرجع نفسه، ج3، ص1565.

وعرضت السورة الكريمة إلى موضوع الزكاة وتحريم تراكم الثروات واكتنازها، وبينت مصارفها التي تعتبر أحد أعمدة الجهاد، وإشارة إلى ظاهرة تعدد المستويات الإيمانية، كما تقرر حقيقة البيعة مع الله من أجل إعلاء دينه وتحقيق مقصد الخلافة هذه هي المحاور الأساسية للسورة والتي تتمحور حول موضوع وأحد هو التوبة، فالإعلان بالبراءة من المشركين، وما فيه من القساوة والشدة، إنما لتحذيرهم من شدة العذاب الناتج عن كفرهم وشركهم، وذلك ترغيباً في التوبة ليقودهم إليها .

يقول الفخر الرازي: "وذلك ترغيب من الله في التوبة والإقلاع عن الشرك الموجب لكون الله تعالى ورسوله موصوفين بالبراءة منه، "وإن توليتم" أي عرضتم عن التوبة عن الشرك، فاعلموا أنكم غير معجزى الله وذلك وعيد عظيم، لأن هذا الكلام يدل على كونه تعالى قادراً على إنزال أشد العذاب بهم"⁽¹⁾، ثم يتبع الدعوة الأولى بتوبة أخرى قرنها بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5]. ورغب مرة أخرى وقرن هذه التوبة بوجوب طلب العلم أو التعلم، فقال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5].

فسورة التوبة من أواخر ما نزل على الرسول ﷺ، ذكر البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَاكٌ لِيَسَ لَهُ، وَلَهُ أَخْتٌ فَلَهَا نِصْفٌ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ بَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: 176]. وآخر سورة نزلت براءة.⁽²⁾ وذلك كان نزولها قبل وفاته ﷺ بقليل، لتكون السورة الختامية واضحة المعالم، وذلك لترسيخ المنهج النبوي من جميع جوانبه الجهادية.

(1) الرازي، أبو عبد الله محمد التيمي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). ج15 (ط:3، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ)، ص 527.

(2) أخرجه: البخاري في صحيحه، مرجع سابق، كتاب التفسير، باب: "براءة من الله ورسوله"، ج4، رقم الحديث: 4377، ص1709.

إن الملامح الأساسية لسورة التوبة، وصورتها الجلية التوبة فمحور السورة الأساس فيها التوبة، فأول السورة توبة قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَابْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: 3]. وتوبة أيضا يتبعها مغفرة ورحمة من الله ﷻ، حيث قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5].

وفي ثنايا السورة ووسطها توبة، رغم عظم جرم المشركين بعداوتهم الشديدة للمؤمنين، ومن قساوة المنافقين وسخرهم واستهزئهم بالله تعالى ورسوله والمؤمنين، وكثرة إرجافهم أثناء الغزوة مما يضاعف عظم ذنبهم ولما لهذا الاستهزاء والإرجاف من أثر في نفوس المجاهدين، ومع ذلك يعطي ربنا منحة العفو وهذا من لطفه وكرمه وجوده، مع أن حكم السخرية والاستهزاء بالله تعالى ورسوله، يستوجب الكفر.

يقول الفخر الرازي: "أته تعالى بين أن ذلك الاستهزاء كان كفرا"⁽¹⁾ ولكن مع هذا يصفح ويعفو عنهم وهذا من فضله ورحمته بعباده قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ طَآئِفَةً بِآثِمِهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: 66]، ويتوب جل في علاه عليهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَرِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 74].

وختم الله تعالى السورة الكريمة بقصة الثلاثة الذين خلفوا في الأرض وتوبته عليهم بأفضل وأبهي صور التوبة وأحسنها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118].⁽²⁾

(1) ينظر: الفخر الرازي، تفسير الرازي، مرجع سابق، ج16، ص95.

(2) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية. تعليق: عمر عبد السلام تدميري. ج4 (ط:3؛ بيرة: دار الكتاب العربي، 1410هـ، 1990م)، ص173.

ولقد تكرر ذكر لفظ التوبة في السورة، أكثر من أي سورة أخرى⁽¹⁾ وبالتالي فإن جوّ السورة العام هو التوبة والمغفرة والرحمة والعفو.

وأنّ ديننا خير محض، مع أن في بداية السورة شدة وقسوة على المشركين عموماً، إلا أنها ختمت بأروع الآيات وأفضلها بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 117].

فضل الله علينا أن يخرج العباد من الظلمات الى النور، ومن الذنب والمعصية إلى حب التوبة والاستغفار، فلذلك جعل الله باب التوبة مفتوحاً للكفار، والمشركين، والمرتدين، والمنافقين، والظالمين والعصاة، والمقصرين.

ثم أثنى ﷺ على صدق توبتهم، بخطاب الله تعالى إلى عموم المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين.

إنّ قسوة البراءة وتهديد المشركين ومن لف لفهم، والإذن بقتالهم، هو بداية التوبة عليهم، وصفحة بيضاء يدخل العصاة من خلالها إلى رحمة الله ﷻ، ومن الذنب إلى الاستغفار كي يتوبوا، وقد كان مع كثير منهم.

فالجهد والقتال على قسوته وكثرة جراحه، إلا أنه الدواء الشافي والبلسم الصافي لبتّر كل ما هو فاسد، وفضل ورحمة الله وتوبته دون استثناء للجميع.

ودعوته جل في علاه قائمة ما دامت السموات والأرض، فلا يقنط من رحمته أحد مهما عظم الذنب وكبرت الخطيئة والمعصية، إلا من كفر ومات على الكفر، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

(1) ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (لا. ط؛ بيروت: دار الهجرة، 1985م)، ص156.

المطلب الخامس: أهداف السورة.

أنّ التوبة على العصاة هي أبرز موضوعات السورة، والهدف الأكبر فيها، ولكنها توبة عامة لكل إنسان ليس فقط المشرك والكافر.

فقلد تبرأ الله ورسوله من المشركين، ولكن كأن هنا لفته أراد الله تعالى أن يقول رغم أنها نزلت للقتال ولكن ما زال باب التوبة مفتوحاً⁽¹⁾.

فسورة التوبة من السور المدنية، والتي تعنى بالجوانب التشريعية بإرساء قواعد الإصلاح والبناء، والتربية الفاضلة الكريمة، التي شيدت عليها دعائم الإسلام، وهذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على الرسول ﷺ، فروى الحافظ ابن كثير أن أول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك بالحج،⁽²⁾ وبعث الرسول ﷺ أبا بكر الصديق، أميراً على الحج تلك السنة ليقوم للناس مناسكهم، ويخبر المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، فلما مضى اتبعه بعلي بن أبي طالب. ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام.

وقد جاء في كتب السير أنها نزلت في السنة التاسعة من الهجرة وهي السنة التي خرج فيها الرسول ﷺ لغزو الروم في غزوته المعروفة بغزوة "تبوك".⁽³⁾

يقول ابن عاشور: "افتتحت السورة الكريمة كما تفتح العهود وصكوك العقود بأدل كلمة الغرض الذي يراد منها كما في قولهم: هذا ما عهد به فلان، وهذا ما اصطح عليه فلان وفلان، وقول الموثقين باع أو وكل أو تزوج، وذلك هو مقتضى الحال في إنشاء الرسائل والمواثيق ونحوها"⁽⁴⁾

وبالفعل فإن السورة الكريمة ابتدأت حديثها بإعلان البراءة من أفعال المشركين، وأعلنت المفاصلة بين أهل الحق وأهل الباطل، وأهل الإيمان وأهل الشرك، وأهل الإسلام وأهل النفاق.

(1) الصابوني، محمد علي، قبس من نور القرآن الكريم. ج4 ط:2؛ دمشق: دار القلم، 1408هـ، 1988م، ص5.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج4، ص89.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، ج4، ص167.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج10، ص102.

ولذلك فقد كان للسورة الكريمة هدفان أصليان وهما:

أحدهما: تحديد القانون الأساسي الذي تشاء عليه دولة الإسلام، وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركي العرب بإلغاء معاهدتهم، ومنعهم من الحج، وتأكيد قطع الولاية بينهم وبين المسلمين، وبوضع الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في جزيرة العرب وإباحة التعامل معهم.⁽¹⁾

ولهذا فقد عرضت السورة من أولها للهدف الأول، واستغرق ذلك سبعة وثلاثين آية في أول السورة، وقد تضمنت هذه الآيات ما يأتي:

- 1- تقرير: البراءة من المشركين ورفع العصمة عن أنفسهم وأموالهم.
- 2- منحهم هدنة مقدارها أربعة شهور.
- 3- إعلان للناس جميعاً يوم الحج الأكبر (وهو يوم عيد الأضحى) بهذه البراءة.
- 4- إتمام مدة العهد لمن حافظ منهم على العهد.
- 5- بيان ما يعاملون به بعد انتهاء أمد الهدنة أو مدة العهد .
- 6- تأمين المستجير حتى يسمع كلام الله.
- 7- بيان الأسباب التي أوجبت البراءة منهم وصدور الأمر بقتالهم.
- 8- إزالة وساوس قد يخطر في بعض النفوس أنها تبرر مسالمة المشركين أو الإبقاء على عهودهم.⁽²⁾

ثانيهما: إظهار ما كانت عليه نفوس إتياع النبي ﷺ، حينما استنفرهم ودعاهم الى غزو الروم، وقد كان بين صفوفهم من المنافقين، أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فتحدثت السورة عنهم بالتفصيل، عن المتثاقلين، والمتخلفين، والمتبطين، وكشفت الغطاء عن فتن أهل النفاق، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين، وفضحت أساليب نفاقهم، وألوان فتنهم وتخذيلاً للمؤمنين حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته، ولا دخلية إلا كشفتها وتركتهم بعد هذا الكشف والتبيين، تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين وقد استغرق الحديث عن المنافقين معظم السورة

(1) عبد الله محمود شحاته، أهداف كل سورة ومقاصدها، (لا.ط؛ مصر: المكتبة المصرية، 1976م)، ص110.

(2) المرجع نفسه، ص112، 113.

إبتداءً من قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ءَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38].

الآيات إلى قريب من نهاية السورة، ولهذا سماها بعض الصحابة "سورة الفاضحة"، لأنها فضحت المنافقين، وكشفت أسرارهم، وكذلك "سورة العذاب"، فما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه وغيرها من أسماء كما سبقت من قبل، وهذا هو السر في عدم وجود البسمة فيها.⁽¹⁾

ولهذا قال السيد قطب: "ثم يجيء المقطع الرابع وهو يستغرق أكثر من نصف السورة في فضح المنافقين وأفاعيلهم في المجتمع، ووصف أحوالهم النفسية والعملية، وموافقهم في غزوة تبوك وقبلها وفي أثناءها وما تلاها، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصف، وإيذاء الرسول ﷺ، والخلص من المؤمنين... إلى إن قال: "وهذه الحملة الطويلة الكاشفة تشي بما كان للمنافقين في هذه الفترة من محاولات كثيرة لإيذاء الصف المسلم وفتنته... وشغله بشتى الفتن والدسائس والأكاذيب عن وجهته. كما أنها في الوقت ذاته تكشف حالة من الخلخلة وعدم التماسق في التكوين العضوي للمجتمع الإسلامي في هذه الفترة. يشير إليها قوله ﷺ:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47].

هذه الحالة التي نشأت عن دخول جماعات كثيرة في الإسلام بعد الفتح لم يكن الإيمان قد استقر في قلوبهم، ولا كانوا قد انطبعوا بالطابع الإسلامي الصحيح.⁽²⁾ وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت المنافقين بين صفوف المسلمين، والذين هم أشد خطراً من المشركين. فضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيرهم، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تبق فيهم صفة ذميمة. إلا ذكرتها ولا مرضا إلا فضحته وبينت علاجه، وقد وصل بهم الكيد في التأمر على الإسلام إلى حد جعلهم يتخذون بيوت الله أوكارا للتخريب والفساد كما بينها الله تعالى في قصة مسجد الضرار

(1) الصابوني، قيس من نور القرآن الكريم، مرجع سابق، ج4، ص8، 7.

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج3، ص1568، 1567.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: 107].

الفصل الثاني: مواطن التوبة في سورة التوبة.

المبحث الأول: أسلوب التعامل مع

المشركين حال الحرب.

المبحث الثاني: الجو العام لغزوة تبوك.

الفصل الثاني: مواطن التوبة في سورة التوبة.

اشتملت سورة التوبة على عدة محاور، ولكن بالنظر إلى اسمها فقد طغت عليها مواضيع التوبة التي قسمت إلى:

- أسلوب التعامل مع المشركين حال الحرب.

- الجو العام لغزوة تبوك.

المبحث الأول: أسلوب التعامل مع المشركين حال الحرب.

المطلب الأول: الدعوة وإقامة الحجّة ابتداءً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُيْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٠٣﴾﴾ [التوبة: 03]

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

لما أنزل ^١حجلاً البراءة، أمر بالإعلام بها في المجمع الأعظم ليقطع الحجج، فقال عاطفاً ظهرت الجملة إلى مضمونها:

الإخبار بوجوب الإعلام بما ثبت بالجملة الأولى المعطوفة عليها من البراءة.⁽¹⁾

قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُيْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، "اعلم أن قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ جملة تامة مخصوصة بالمشركين.

(1) البقاعي، نظم الدرر، مرجع سابق، ج8، ص372.

وقوله: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾⁽¹⁾ جملة أخرى تامة معطوفة على الجملة الأولى وهي عامة في حق جميع الناس، لأن ذلك مما يجب أن يعرفه المؤمن والمشرك من حيث كان الحكم المتعلق بذلك يلزمها جميعا. فيجب على المؤمنين أن يعرفوا الوقت الذي يكون فيه القتال الذي يحرم فيه، فأمر الله تعالى بهذا الإعلام يوم الحج الأكبر، وهو الجمع الأعظم ليصل ذلك الخبر إلى الكل".⁽¹⁾

ثانيا: المعنى الإجمالي:

أذن الله تعالى في معاهدة المشركين، فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدهم ثم إن المشركين نقضوا العهد فأوجب الله النبد إليهم، فخطب المسلمون بما يحذرهم من ذلك"⁽²⁾

فنزلت سورة البراءة، وشاء أن تقرأ مسامح الحجاج في السنة التاسعة للهجرة كي يحددوا موقفهم ممن حاربوا الإسلام وظلموا أمته ودينوا شعائره، ولم يحترموا يوما كتابه وسنته لقد قيل لأولئك الحجيج: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين⁽³⁾، والأذان⁽⁴⁾؛ أي إعلام من الله ورسوله وتقدم إنذار إلى الناس يوم الحج الأكبر وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعا أن الله بريء من المشركين ورسوله أي بريء منهم أيضا ثم دعاهم إلى التوبة إليه.⁽⁵⁾

والبراءة⁽⁶⁾، أي الولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة، البغض والبعد.⁽⁷⁾

(1) الرازي، تفسير الرازي، مرجع سابق، ج15، ص525.

(2) المرجع نفسه، ج11، ص523.

(3) الإمام الغزالي، علل وأدوية. ج1 (ط:1؛ مصر: دار النهضة، د.ت)، ص139.

(4) الأذان: الإعلام، ينظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط. ج1 (لا.ط؛ لا.م: دار الدعوة، د.ت)، ص11.

(5) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج4، ص91.

(6) البراءة: "جمع بريء وهو من باب رخل ورخل وحكى الفراء في جمعه براء غير مصروف على حذف إحدى المهمزتين..."، ينظر:

ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج1، ص31.

(7) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس، مجموع الفتاوى. ج11 (ط:3؛ لا.م: دار الوفاء، 1426هـ، 2005م)، ص160، 161.

ورغم هذه الشدة والقساوة يفتح باب التوبة وهذا من رحمة ورأفة الله تعالى بعباده، فقال: "فإن تبتم" أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال فهو خير لكم، و "إن توليتم" أي استمررتم على ما أنتم عليه فاعملوا أنكم غير معجزى الله، بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيتته.⁽¹⁾

وكان ختام الله تعالى في هذا الموطن بتبشيرهم بالعذاب الأليم من قتل وأسر فقال: "وبشر الذين كفروا بعذاب أليم" فلفظ البشارة كان وروده في هذا الموطن على سبيل الاستهزاء والازدراء والسخرية.

ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآية:

1- تحريم الغدر والخيانة، ولذا كان إلغاء المعاهدات علنياً وإمداد أصحابها بمدة ثلث سنة يفكرون في أمرهم ويطلبون الأصلاح لهم.

2- وجوب الوفاء بالمعاهدات ذات الآجال إلى أجلها إلا أن ينقضها المعاهدون.⁽²⁾

3- لا يأس في شرعة القرآن، فقد فتح الله باب التوبة والأمل أمام الكفار، وهددهم بالعذاب إن تولوا عن الإسلام.⁽³⁾

هذه الآية تبين لنا أن باب التوبة مفتوح لمن أرادها فبالرغم من البداية الشديدة الملفتة إلا أنه ﷺ فتح لهم هذا الباب.

⁽¹⁾ ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج4، ص91.

⁽²⁾ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، موقع التفاسير: (www.altafsir.com)، ج2، ص338.

⁽³⁾ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص105.

المطلب الثاني: شروط توبة المخالف أو المنادي.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 05].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

هذه الآية الكريمة مفرعة على ما قبلها فبعد أن أعلن تعالى البراءة من عهود المشركين⁽¹⁾، وقرر البراءة إثباتاً ونفيًا، أمر بما يصنع بعد ما ضربه لهم من الأجل، فقال: "فإذا" أي فتسبب عن ذلك أنه إذا "انسلخ" انقضى وخرج ومضى "الأشهر الحرم"⁽²⁾ التي حرمت عليكم فيها قتالهم وضربتها أجلا لسياحتهم، والتعريف فيها مثله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۗ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ [المزمل: 15 - 16] فذكر هنا ما يجب على المؤمنين فعله، وهو قتالهم في أي مكان في الحل والحرم، فقال تعالى ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ الناكثين الذين ضربتم لهم الأجل إحساناً وكرماً⁽³⁾.

ثانياً: المعنى الإجمالي:

بعد أن ذكر ﷻ الأذان العام بالبراءة من عهود المشركين وسائر خرافاتهم وضلالاتهم على الوجه الذي سبق تفصيله⁽⁴⁾ في الموقت منها وغير الموقت، وهو مفصل لكل حال يكونون عليها بعد هذا الأذان العام من إيمان وكفر، ووفاء وغدر، وانسلاخ الأشهر انقضاؤها والخروج منها، وهي الأشهر التي حرم الله

(1) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص107.

(2) الأشهر الحرم: "فيها قولان: أحدهما: أنها رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والحرم، قاله الأكتون. والثاني: أنها الأربعة الأشهر التي جعلت لهم فيها السياحة، قاله الحسن، فعلى هذا، سميت حُرْمًا لأن دماء المشركين حرّمت فيها". ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، ج2، ص236.

(3) ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج8، ص380، وينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص107.

(4) المراغي، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج10، ص57.

فيها قتالهم في الأذان والتبليغ، الذي بينته الآية ما يترتب عليه من الأحكام بقوله: "فسيحوا في الأرض أربعة أشهر"، أي: آمنين لا يعرض لكم أحد بقتال فيها،⁽¹⁾ فقفى على ذلك بذكر ما يجب أن يفعله المسلمون معهم حين انقضاء الأجل المضروب لهم والأمان الذي أعطى لهم للضرب في الأرض⁽²⁾.

ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآية:

دلّت الآية الكريمة على ما يأتي:

- 1- وجوب قتال مشركي العرب حتى يسلموا إذ لا يقبل منهم باعتبارهم حملة رسالة الدعوة الإسلامية إلى العالم إلا الإسلام أو القتل.
 - 2- إنّ إقامة الصلاة أو إيتاء الزكاة دليل على الإسلام، وأنهما يعصمان الدم والمال، ويوجبان لمن يؤديهما حقوق المسلمين من حفظ دمه وماله إلا بحق الإسلام. كارتكاب ما يوجب القتل من قتل النفس البريئة وزنى الزاني المحصن، والردة إلى الكفر بعد الإيمان.
 - 3- احتج الشافعي بهذه الآية على أن تارك الصلاة يقتل لأنه تعالى أباح دماء الكفار بجميع الحالات، ثم حرمها عن مجموع هذه الثلاثة: وهي التوبة عن الكفر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإذا لم يوجد هذا المجموع، وجب أن يبقى إباحة الدم على الأصل⁽³⁾، ورآه الجصاص الحنفي أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ قبول لزومهما والتزام فرضهما دون فعلهما.⁽⁴⁾
- ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحلا كفر، ومن ترك السنن متهاونا فسقا، ومن ترك النوافل لم يخرج إلا أن يجحد فضلها فيكفر لأنه يصير رادا على الرسول عليه الصلاة والسلام ما جاء به وأخبر عنه⁽⁵⁾. واختلف العلماء فيمن ترك الصلاة كسلا من غير جحد لها ولا استحلال فقال مالك والشافعي: "من آمن بالله، وصدق المرسلين وأبى أن يصلي قتل".

(1) ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج10، ص148.

(2) المراغي، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج10، ص57.

(3) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص109-110.

(4) ينظر: الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي، أحكام القرآن. تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين. ج3 (ط:1؛ بيروت: دار

الكتب العلمية، 1415هـ، 1994م)، ص106.

(5) القرطبي، تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج8، ص74.

4- قوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ عام في كل مشرك وفي كل من كفر بالله، كما ذكر ابن العربي

لكن السنة خصت منه المرأة والصبي والراهب. (1)

ويتبين المراد بالآية: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يحاربونكم. (2) فيقتل مشركوا العرب أو يسلموا ونصت الآية أيضا بأهل الكتاب بإقرارهم على الجزية فيخبرون بين الإسلام أو الجزية أو القتل.

5- دلّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ على أنه يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر. (3)

في هذا الموطن وبعد أن أعطى الله تعالى فرصة للمشركين بالتوبة وقرنها بالصلاة والزكاة، وإلا وجب محاربتهم بكل أنواع القتال المعروفة في ذلك العصر من قتل وأسر وحصر وقطع طرق الوصول إليهم.

(1) ينظر: ابن العربي، محمد بن عبد الله المالكي، أحكام القرآن. ج2، (ط:3، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ، 2003م)، ص456، وينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص110.

(2) المرجع نفسه ينظر: ابن العربي، أحكام القرآن، مرجع سابق، ج2، ص456.

(3) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص110.

المطلب الثالث: معاملة المشركين كالأخوان واستمالتهم للدخول في الإسلام.

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿التوبة: 7-8-9-10-11﴾.

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن ذكر الله تعالى براءة الله ورسوله من عهود المشركين، وإعلان الحرب عليهم بعد أربعة أشهر التي أعطاها فرصة لهم، أبان سبب البراءة منهم ومحاربتهم بكل أنواع القتل، وهو نقضهم للعهود ومعاملتهم بالمثل بين تعالى أنه لو أن أحدا من هؤلاء المشركين الذين أمرنا بقتلهم، وأحل لنا استباحة نفوسهم وأموالهم، طلب الأمان، فإن علينا أن نجيبه إلى طلبته حتى يسمع القرآن، ويعلم الإسلام؛ لتقوم عليه حجة الله،⁽¹⁾ ثم بين الله تعالى حال المشركين من أنهم لا يرقبون في مؤمن ولا ذمة، وينقضون العهد، ويضمرون النفاق، ويتعدون ما حد لهم، بين حالهم بعد ثبوت عداوتهم للإسلام،⁽²⁾ ثم بين ما يصبرون به أهلا فقال: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي بالإيمان بسبب ما أبدتكم لهم من الغلظة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ و ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ كما حدّه رسول الله ﷺ ولما كان كأنه قيل بعثنا وتحريضا على تأمل ما فضل، قد فصلنا لكم أمرهم في هذه الآيات تفضيلا⁽³⁾.

(1) ينظر: سعيد حوى، الأساس في التفسير، ج4 (ط:6؛ القاهرة: دار السلام، 1424هـ)، ص2220.

(2) ينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص110.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج10، ص390، 391.

ثانيا: المعنى الإجمالي:

أمر الله تعالى بما يترتب على نبد العهود وهو عود حال الحرب معهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم التي وُقِّتت بها، ثم ذكر غلبة الفسق والخروج من الفضائل الفطرية والتقليدية على أكثرهم حتى مراعاة القرابة والوفاء ونحوهما مما يُمدح عندهم ثم أردف ذلك بذكر السبب وهو أنهم استبدلوا آيات الله الدالة على توحيدهِ بالعبادة... ثمنا قليلا من حطام الدنيا، وهو ما هم فيه من رخاء العيش، فصدوا بسبب هذا الشراء الخسيس أنفسهم عن الإسلام وما يقتضيه من الوفاء وصدوا غيرهم أيضا، وجعله قليلا لأنه زائل غير باق وما عند الله باق دائم وهو خير وأبقى، ولكن إذا رجع هؤلاء المشركون عن شركهم بالله إلى الإيمان به وبرسوله وأنبأوا إليه وأطاعوه، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة المفروضة فهم إخوانكم في الدين الذي أمركم به، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم.⁽¹⁾

ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآيات:

حضت الآيات على التوبة الصادقة عن الشرك والتزام أحكام الإسلام، وعلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلا تفرقه بين هذه الأمور الثلاثة. فإن أعرض المشركون عن قبول دعوة الإسلام وطعنوا في الدين استحقوقا القتل والقتال، وأصبحت عهودهم لا قيمة لها وكأنها لم تكن، وربما كان القتال سبيلا لقبول الإسلام، والتخلص من الوثنية والشرك.⁽²⁾

ففي هذا الموطن تبين لنا أنّ حال المشركين بعد ما كان بينهم من عداوة للمسلمين ومن نقض للعهود... إلا أنهم بمجرد التوبة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة صاروا إخوة في الدين، وبهذه الأخوة يزول كل ما كان بينهم من عداوات.

⁽¹⁾ ينظر: المراغي، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج10، ص61...56.

⁽²⁾ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص124.

المطلب الرابع: الإعجاز في توبة المشركين بعد الأمر بالقتال.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۗ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [التوبة: 14-15].

أولاً: مناسبة الآيتين لما قبلها:

قال الرازي: "اعلم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: ألا تُقاتلون قوماً [التوبة: 13] ذكر عقيبها سبعة أشياء كل واحد منها يوجب إقدامهم على القتال. ثم إنه تعالى في هذه الآية أعاد الأمر بالقتال⁽¹⁾، فكان السبب الذي بعث على مقاتلتهم وهو نقضهم العهد، واعتداؤهم على المؤمنين.

ثانياً: المعنى الإجمالي:

ذكر ﷺ في الآية التي قبلها: عند قوله تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۗ﴾ [التوبة: 14]، أنه عندما يقاتل المؤمنون الكفار سيصيب الكفار العذاب والخزي والهزيمة، إذن: "يعذبهم الله بأيديكم" مرحلة، "ويخزيهم" مرحلة ثانية "وينصرهم" عليهم "مرحلة ثالثة، ثم تأتي المرحلة الرابعة، "ويشف صدور قوم مؤمنين"، والنصر الذي سيحققه المؤمنون يشفي صدور المؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم.⁽²⁾ وأسند التعذيب إلى الله وجعلت أيدي المسلمين آلة له تشريف للمسلمين، ونلمس أنه ﷺ رغم تعذبه لهم، وتشديد النكير عليهم إلا أنه يفتح باب التوبة وبهذا يعطي المؤمنين سماحة إيمانية فلا يصحبوا التعالي على هؤلاء إن جاءوا تائبين مؤمنين⁽³⁾.

(1) الرازي، تفسير الرازي، مرجع سابق، ج16، ص5.

(2) ينظر: الشعراوي، محمد المتولي، تفسير الشعراوي، ج8 (لا.ط؛ لا.م: مطابع أخبار اليوم، 1997م)، ص4926، 4927.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج10، ص135.

والإعجاز في توبة المشركين بعد الأمر بالقتال، أن سنة الله اقتضت أن الناس إذا رأوا انتصار أعدائهم عليهم في كل معركة يميلون إليهم، ويقبلون دينهم، وما هم عليه من صفات فقتال المؤمنين للكافرين وانتصارهم عليهم يتيح الفرصة لكثير من المؤمنين فيسلمون وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة:15] وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:15] ، تقريراً للأمر بالقتال والنتائج الطيبة المترتبة عليه وآخرها أن يتوب الله على من يشاء.⁽¹⁾

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من الآيتين:

تضمن قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة:15]، الإخبار بأن بعض المشركين يتوب الله عن كفره، وقد حدث ذلك فعلاً، وهذا من معجزات القرآن، لتأييد النبي ﷺ في دعوته، ودفع الناس إلى الإيمان برسالته ما دام قد ظهر لهم صدقه. فالآية دالة على المعجزة لأنه أخبر عن حصول هذه الأحوال وقد وقعت موافقة لهذه الأخبار فيكون ذلك إخباراً عن الغيب، والإخبار عن الغيب معجز.⁽²⁾ وهذه الآية تدل على كون الصحابة مؤمنين في علم الله تعالى إيماناً حقيقياً لأنها تدل على أن قلوب الصحابة كانت مملوءة بالحمية لأجل الدين، والرغبة الشديدة في إعلاء شأن الإسلام.

وأرشدت الآية الكريمة إلى المنافع الخمسة التي ذكرها الله تعالى في هذا القتال وهي تعذيب المشركين بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر، وخزيهم وإذلالهم بعد قتلهم، وتحقيق النصر عليهم، وشفاء صدورهم من انتظار الفتح الذي وعدهم الله به وازهاب غيظ القلوب.⁽³⁾

في هذا الموطن يظهر لنا أن الله تعالى أعاد الأمر بقتال المشركين الذين نالوا منهم الأذى والخيانة والغدر ولم يستطيعوا دفعه، لكي يذهب الغيظ الذي كان قد قر في قلوبهم ولكن في نفس الوقت ذكر القلوب التي لم يستحوذ عليها الكفر أن الله تعالى يتوب على من يشاء .

⁽¹⁾ ينظر: الشعراوي، محمد المتولي، تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج8، ص4928.

⁽²⁾ ينظر: الرازي، تفسير الرازي، مرجع سابق، ج16، ص6، وينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص131.

⁽³⁾ ينظر: الرازي، تفسير الرازي، مرجع سابق، ج16، ص6، وينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص131.

المطلب الخامس: توبة الله على المؤمنين وتذكيرهم بالنصر بعد الابتلاء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلِيَتْكُمْ مَدْيَنَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ [التوبة: 25-26-27].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة أنه يجب الإعراض عن مخالطة الآباء والإخوان وعن الأموال والتجارات وغيرهم، رعاية لمصالح الدين، ولما علم الله تعالى أن هذا يشق جدا على القلوب والنفوس ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضا، وضرب الله تعالى لهذا مثلا، وذلك أن عسكر رسول ﷺ في واقعة حنين كانوا في غاية الكثرة والقوة، فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين، ثم في حال الانهزام لما تضرعوا إلى الله قواهم حتى هزموا عسكر الكفار، وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه، فكان ذكر هذا تسلية لأولئك الذين أمرهم الله بمقاطعة الآباء والأبناء والأموال، لأجل مصلحة الدين وتصبيرهم عليها، وعلى سبيل الرمز بأنهم إن فعلوا ذلك فالله تعالى يوصلهم إلى أقدارهم وأموالهم على أحسن الوجوه⁽¹⁾.

(1) ينظر: الرازي، تفسير الرازي، مرجع سابق، ج 16، ص 18.

ثانيا: المعنى الإجمالي:

امتن الله تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواقع الحروب والهيجاء.⁽¹⁾

والمواطن الكثيرة، وقعات بدر، وقريظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة.⁽²⁾ وحتى في يوم حنين الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها⁽³⁾، وذلك حين قاتلوا قبيلة هوزان مذكرا إياهم بهزيمة أصابت المؤمنين نتيجة خطأ من بعضهم وهو الغرور بكثرة العدد، إذ قال من قال منهم: لن نغلب اليوم حتى ضاقت عليهم الأرض على سعتها وولوا مدبرين هارين، ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ⁽⁴⁾ فكان في بادئ الأمر الهزيمة للمسلمين ثم كانت العاقبة النصر والظفر، وتحقق النصر والظفر للمسلمين بما أمدهم به رب العزة من نعمه العظيمة على عباده، منها أنه تعالى أنزل عليهم السكينة والطمأنينة، وأنزل جنودا معونة للمسلمين يوم حنين وعذب ﷺ الكافرين بالهزيمة والقتل⁽⁵⁾. وخطأ التولي كان لا بد له من توبة، فيأتي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 27]. فأشار هنا إلى توبته على من تولى يوم حنين⁽⁶⁾.

قال الطبري: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 27]. "ثم يتفضل الله بتوفيقه للتوبة والإنابة إليه، من بعد عذابه الذي به عذب من هلك منهم قتلا بالسيف "على من يشاء"، أي يتوب الله على من يشاء من الأحياء، يقبل به إلى طاعته "والله غفور

⁽¹⁾ ينظر: السعدي، عبد الرحمان بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويجق. ج1 (ط:1؛ لا.م: مؤسسة الرسالة، 1420هـ، 2000م)، ص332.

⁽²⁾ الزمخشري، تفسير الكشاف، مرجع سابق، ج2، ص259.

⁽³⁾ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج1، ص332.

⁽⁴⁾ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص64.

⁽⁵⁾ ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج1، ص332.

⁽⁶⁾ الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. ج2 (لا.ط؛ بيروت: دار

الفكر، 1415هـ، 1995م)، ص116.

"لذنوب من أناب وتاب إليه منهم ومن غيرهم منها "رحيم" بهم، فلا يعذبهم بعد توبتهم ولا يؤاخذهم بها بعد إنابتهم"⁽¹⁾، فجاءت التوبة في هذا الموطن من التولي والتخاذل والهزيمة.

ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآيات:

1- بيان افضال الله تعالى وإكرامه لعباده المؤمنين.

2- بيان الحكمة من القتال في سبيل الله تعالى.⁽²⁾

يبين الله ﷻ في هذا الموطن أن المؤمن قد تكون له زلات وأخطاء ومهما كبرت فباب المغفرة يبقى مفتوح لمن يخطئ ثم يتوب، وهذا من فضل الله تعالى وإكرامه لعباده المؤمنين.

المطلب السادس: تهديد للمنافقين والمرتدين وفتح باب التوبة لهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُبَايِعُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذَبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ [التوبة: 73-74].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن قارن الله تعالى صفات المؤمنين مع صفات المنافقين، وقابل بين جزاء كل من الفريقين، أعاد الكرة إلى تهديد المنافقين وإنذارهم بالجهاد، وأبان أسبابه من إظهار الكفر، وحلف الأيمان الكاذبة وقول كلمات فاسدة، ثم فتح لهم باب الأمل وهو التوبة، وهددهم بالعذاب الأليم إن أصروا على الكفر.⁽³⁾

⁽¹⁾ الإمام الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (تفسير الطبري)، مرجع سابق، ج14، ص190.

⁽²⁾ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص70.

⁽³⁾ ينظر: المراغي، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج10، ص163.

ثانيا: المعنى الإجمالي:

النص في عمومته يستعرض حالة المنافقين في كثير من مواقفهم، ويشير إلى ما أرادوه مرارا من الشر للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين".⁽¹⁾ فالمنافقون كعادتهم إذا ظهر شيء من نفاقهم أو سمعت عنهم كلمة كفر حلفوا بالله أنهم ما قالوا ذلك، فيجعلون حلفهم ترسا يقيهم من مؤاخدة النبي ﷺ بذنبهم.⁽²⁾

والمنافقون أسوأ أنواع الكفر لأنهم زادوا على كفرهم الكذب والمراوغة ونقضهم لعهد الإسلام، وذكرت هذه الآية شواهد كفرهم من أيمانهم الكاذبة وغيرها. وعلى عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس فلما أمر بجهادهم ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73]. والغلظة عليهم وتوعدهم بالمصير إلى النار فرع على ذلك الأخبار بأن التوبة مفتوحة لهم وإن تدارك أمرهم في مكنتهم.⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: 74] بين الله تعالى أن من كفر بعد إسلامه أن تاب كان خيرا له. وألا يعذب عذابا أليما.

قال الإمام الطبري: "وأما قوله: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: 74] يقول تعالى ذكره: فإن تيب هؤلاء القائلون كلمة الكفر من قبلهم الذي قالوه فرجعوا عنه يك رجوعهم وتوبتهم من ذلك، خيرا لهم من النفاق، و"إن يتولوا"، يقول: وأن يدبروا عن التوبة، فيأتوها ويصروا على كفرهم، "ويعذبهم الله عذابا أليما" يقول يعذبهم عذابا موجعا في الدنيا، إما بالقتل، وإما بعاجل خزي لهم فيها، ويعذبهم في الآخرة بالنار.⁽⁴⁾

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج3، ص1677.

(2) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج8، ص190.

(3) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج10، ص271.

(4) الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج14، ص367، 368.

فتوعدهم الله بتعجيل الانتقام منهم، وألا يصدق لهم قولاً ولا يبر لهم قسماً،⁽¹⁾ وتتابع آيات الكريمة على نفس الوتيرة تهديداً وتحويفاً ووعداً لهم وفي النهاية فتح باب التوبة والتذكير به.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من الآيات:

دلّت الآية الكريمة على ما يأتي:

- 1- حلف الكفار والمنافقين بالإيمان الفاجرة الكاذبة، والصحيح أن هذه الأقوال والأفعال الخيبة هي ظاهرة عامة بين المنافقين لعموم القول، ووجود المعنى في عبد الله بن أبي وجلاس بن سويد، ووديعة بن ثابت وفي غيرهم. وأساس اعتقادهم في النبي أنه ليس بنبي.⁽²⁾
 - 2- كلمة الكفر التي قالوها قيل: هي تكذيبهم بما وعد الله من الفتح، أو القول الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن أشر من الحمير، أو قول عبد الله بن أبي: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]. وقيل: هي سب النبي ﷺ والطعن في الإسلام، والظاهر هو المعنى الأخير.
 - 3- دلّ قوله: وكفروا بعد إسلامهم أي بعد الحكم بإسلامهم، على أن المنافقين كفار، ويدل عليه دلالة قاطعة قوله تعالى في آية أخرى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: 3].
- ودلّ هذا القول أيضاً على أن الكفر يكون بكل ما يناقض التصديق بالله وبالنبوة، والمعرفة لله ﷻ، وإن كان الإيمان لا يكون إلا بلا إله إلا الله، دون غيره من الأقوال والأفعال إلا في الصلاة، فمن شوهده يصلي الصلاة في وقتها، حتى صلى صلوات كثيرة حكم عليه بالإيمان.

(1) ينظر: الماوردي، أبو الحسن علي البصري، النكت والعيون، تفسير الماوردي. تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم. ج2 (لا. ط؛ بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص383.

(2) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص316.

4- دلّ قوله، ﴿وَهُمْ أَيْمَانًا يَنَالُونَ﴾ [التوبة: 74]، على مؤامرة جماعية من المنافقين، وكانوا في

الأصح اثني عشر منافقا، لقتل النبي ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك تشبه مؤامرة كفار قريش ليلة الهجرة.

5- المنافقون من شر الناس لأنهم كما ذكر تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ

يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ

مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 74]، الغادرون يقاتلون الإحسان بالإساءة، فقد استغنوا بالغنائم

ومع ذلك هموا بقتل النبي ﷺ، فانطبق عليهم المثل المشهور "اتق شر من أحسنت إليه"

أرشد قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 74] على توبة الكافر الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان

وهو الذي يسميه الفقهاء: "الزنديق". وقد اختلف العلماء في شأن توبته، فقال الشافعي والجمهور:

تقبل توبته، وقال مالك: توبة الزنديق لا تعرف لأنه كان يظهر الإيمان ويسر الكفر، ولا يعلم إيمانه إلا

بقوله، فإذا عثر عليه وقال: ثبت، لم يقبل قوله، وإذا جاءنا تائباً من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه، قبلت

توبته. وهو المراد بالآية.

6- المنافقون خسروا الدنيا والآخرة، فإن هم أصروا على النفاق.

7- يعذبهم الله عذابين: في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار، وما لهم في الأرض كلها ولي أي مانع

يمنعهم، ولا نصير أي معين ينصرهم.⁽¹⁾

في هذا الموطن بيّن الله تعالى أن الخير يكون في التوبة من الكفر والنفاق، وأن الإعراض عنها فيه

عذاب في الدنيا – عذاب الجهاد والأسر – وفي الآخرة عذاب النار.

(1) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج10، ص317،316،315.

المبحث الثاني: الجو العام لغزوة تبوك.

المطلب الأول: الندم على ما فات والتحذير من إيثار الدعة والرضا بسوء جوار

المنافقين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ
اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 102].

أولاً: سبب النزول:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْوَالِيِّ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 102].

نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا قَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ «تَبُوكَ»، ثُمَّ نَدِمُوا عَلَى ذَلِكَ وَقَالُوا: نَكُونُ
فِي الْكِنِّ وَالظَّلَالِ مَعَ النِّسَاءِ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فِي الْجِهَادِ! وَاللَّهِ لَنُوثِقَنَّ أَنْفُسَنَا
بِالسَّوَارِي فَلَا نُطَلِّقُهَا حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ هُوَ [الَّذِي] يُطَلِّقُنَا وَيَعْدِرُنَا. وَأَوْثِقُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَوَارِي
الْمَسْجِدِ. فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِهِمْ فَرَأَهُمْ فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: هَؤُلَاءِ تَخَلَّفُوا عَنْكَ، فَعَاهَدُوا
اللَّهَ أَنْ لَا يُطَلِّقُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي تُطَلِّقُهُمْ وَتَرْضَى عَنْهُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَأَنَا أُقْسِمُ بِاللَّهِ
لَا أُطَلِّقُهُمْ حَتَّى أُمَرَ بِإِطْلَاقِهِمْ، وَلَا أَعْدِرُهُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ يَعْدِرُهُمْ، وَقَدْ تَخَلَّفُوا عَنِّي وَرَغِبُوا
بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ الْغَزْوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. فَلَمَّا نَزَلَتْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ فَأُطْلِقَهُمْ، وَعَدِرُهُمْ، فَلَمَّا أُطْلِقَهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ أَمْوَالُنَا الَّتِي خَلَقْتَنَا عَنْكَ، فَتَصَدَّقْ بِهَا
عَنَّا وَطَهِّرْنَا وَاسْتَغْفِرْ لَنَا

فَقَالَ: مَا أَمَرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالَهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...﴾ [التوبة:103].⁽¹⁾

ثانيا: مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر القسم المارد الجافي، ثنى بمقابلة اللين الصافي، وهي الفرقة التي نجح المتاب عليها والنظر بعين الرحمة إليها فقال: "وآخرون" أي ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة آخرون "اعترفوا بذنوبهم" كلفوا أنفسهم ذكرها توبة منهم ندما وإقلاعا وعزما ولم يقزعوا إلى المعاذير الكاذبة وهو المقتصدون. ولما كان الخلط جمعا في امتزاج، كان بمجرد ذكره يفهم أن المخلوط أمتزج بغيره، فيفهم أن المعنى "خلطوا عملا صالحا" بسيء و"آخر سيئا" بصالح، فهو أطف شاهد لنوع الاحتباك ولعل التعبير بما أفهم ذلك إشارة إلى تساوي العملين وأنه ليس أحدهما بأولى من الآخر أن يكون أصلا.⁽²⁾

ثالثا: المعنى الإجمالي:

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة:102] فيهم قولان:

أحدهما: أنهم سبعة من الأنصار منهم أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام كانوا من جملة العشرة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فربطوا أنفسهم لما ندموا على تأخرهم إلى سواري المسجد ليطلقهم رسول الله ﷺ أن كفا عنهم، فلما عاد الرسول ﷺ مر بهم وكانوا على طريقة فسأل عنهم فأخبر بحالهم. فنزلت هذه الآية فيهم فأطلقهم وهذا قول ابن عباس.

(1) ينظر: النيسابوري، أبو الحسن بن علي الواحدي، أسباب النزول. تحقيق: كمال بسيوني زغلول، (ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1411هـ)، ص263، وينظر: السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور. ج4 (لا.ط)؛ بيروت: دار الفكر د.ت)، ص275، وينظر: السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول. ج1 (لا.ط)؛ بيروت: دار إحياء العلوم، د.ت)، ص115.

(2) البقاعي، نظم الدرر، مرجع سابق، ج9، ص10.

ثانيهما: أنه أبو لبابة وحده قال لبني قريظة حين أرادوا النزول على حكم النبي ﷺ إنه إذا بحكم أن نزلتم على حكمه،⁽¹⁾ فكان تخلفهم عن رسول الله ﷺ وتركهم الجهاد معه، لا لكفر أو نفاق ولكن لكسل ثم ندموا على ما فعلوا ثم تابوا.⁽²⁾

رابعاً: الهدايات المستنبطة من الآية:

قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 102] الاعتراف الإقرار بالشيء عن معرفة؛ لأن الإقرار من قر الشيء إذا ثبت، والاعتراف من المعرفة وإنما ذكر الاعتراف بالخطيئة عند التوبة؛ لأن تذكر فبج الذنب أدعى إلى إخلاص التوبة منه وأبعد من حال من يدعى إلى التوبة ممن لا يدري ما هو ولا يعرف موقعه من الضرر، فأصح ما يكون من التوبة أن تقع مع الاعتراف بالذنب ولذلك حكى الله تعالى عن آدم وحواء عند توبتهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

وإنما قال: "عسى الله أن يتوب عليهم" ليكونوا بين الطمع، والإشفاق فيكونوا أبعد من الإتكال، والإهمال وقال الحسن: "عسى" من الله واجب. وفي هذه الآية دلالة على أن المذنب لا يجوز له اليأس من التوبة، وإنما يعرض ما دام يعمل مع الشر خيراً لقوله تعالى: "خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً" وأنه متى كان للمذنب رجوع إلى الله في فعل الخير، وإن كان مقيماً على الذنب أنه مرجو الصلاح مأمون خير العاقبة، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87]، فالعبد وإن عظمت ذنوبه فعير جاز له الإنصراف عن الخير يائساً من قبول توبته؛ لأن التوبة مقبولة ما بقي في حال التكليف، فأما من عظمت ذنوبه وكثرت مظالمه وموبقاته فأعرض عن فعل الخير والرجوع إلى الله تعالى يائساً من قبول توبته فإنه يوشك أن يكون ممن قال الله عز وجل ﴿كَلَّا

بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].⁽³⁾

(1) ينظر: الماوردي، النكت والعيون، مرجع سابق، ج2، ص398.

(2) ينظر: الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج14، ص453.

(3) الجصاص، أحكام القرآن، مرجع سابق، ج3، ص189، 188.

في هذا الموطن بيان أنّ المؤمن الصالح وإن اقترف بعض الذنوب ولو عظمت فلا ييأس من رحمة الله تعالى فيكفي أنه علم بقبح ذنبه وسوء عاقبته، وخاف من سخط الله وعقابه ثم أقلع عنه، وعزم إلى العمل بضده.

المطلب الثاني: الحث على التوبة والصدقات .

قَالَ تَعَالَى: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالَهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ ﴿التوبة: 103-104﴾

أولاً: سبب النزول:

نزلت في القوم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بعدما تابوا فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلّفنا عنك، فتصدّق بها عنّا وطهرنا واستغفر لنا، فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالَهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿التوبة: 103﴾. (1)

ثانياً: مناسبة الآيتين لما قبلها:

لما ساق توبتهم ﷺ في حيز "عسر"، وكان الأصل فيها التوجيه في المحبوب والإشفاق في المكروه وأمر سبحانه بالأخذ من أموالهم لذلك، وكان إخراج المال شديداً على النفوس لا سيما في ذلك الزمان، كان ربما استوقف الشيطان من لم يرسخ قدمه في الإيمان عن التوبة وما يترتب عليها من الصدقة لعدم الجزم بأنها تقبل، فأتبع ذلك ﷺ بقوله: "ألم يعلموا"، أي المعتزفون بالذنوب حتى تسمح أنفسهم بالصدقة أو غيرهم حتى يرغبوا في التوبة والصدقة، وأن الله الذي له الكمال كله. (2)

(1) ينظر: النيسابوري، أسباب النزول، مرجع سابق، ص263، وينظر: السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، مرجع

سابق، ص275، وينظر: السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، مرجع سابق، ج1، ص115.

(2) البقاعي، نظم الدرر، مرجع سابق، ج9، ص13.

ثالثا: المعنى الإجمالي:

لما حكى الله تعالى عن القوم الذين تقدم ذكرهم في الموطن السابق أنهم تابوا عن ذنوبهم وأنهم تصدقوا وهناك لم يذكر إلا قوله: "عسى الله يتوب عليهم" وما كان ذلك صريحا في قبول التوبة، أمر الله تعالى نبيه أن يأخذ الصدقة منهم، وإنما هذه الصدقة المطلوبة من الصدقات التي تكفر المعاصي، وقد كان بعض الخطائين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من أراد التصدق بكل ماله تكفيرا عن خطئهم في التخلف وإحساسا بكبر ما ارتكبوا، وأخذ الصدقات منهم يؤكد قبول توبتهم وترغيب من لم يتب في التوبة.⁽¹⁾ وقوله: "ألم يعلموا" عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين قال معناه ابن زيد، ويحتمل أن يعود إلى الذين تابوا وربطوا أنفسهم وقوله تعالى "هو" تأكيد لانفراد الله ﷻ بهذه الأمور. وتحقيق ذلك أنه لو قال: إن الله يقبل التوبة لاحتمل أن يكون قبولا منه، فبينت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبي ولا ملك.⁽²⁾

فبشر ﷻ هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ثم زاد تأكيدا بقوله: "هو التواب الرحيم" أن الله هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده أو يردّها، ويأخذ صدقة من تصدق منهم أو يردّها عليه دون محمد، فيوجهوا توبتهم وصدقتهم إلى الله، ويقصدوا بذلك قصد وجهه دون محمد وغيره ويخلصوا التوبة له ويريده بصدقتهم ويعلموا أن الله هو التواب الرحيم.⁽³⁾

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وأیضا دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب الأول-التوبة-"⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ينظر: الرازي، تفسير الرازي، مرجع سابق، ج6، ص139، وينظر: أبي السعود، العمادي بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج4 (لا.ط؛ لا.م: دار الفكر العربي، د.ت)، ص3437، 3436.

⁽²⁾ القرطبي، تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج8، ص250.

⁽³⁾ ينظر: الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج14، ص459.

⁽⁴⁾ ابن تيمية، مجموع الفتاوى. تحقيق: أبو الباز، عامر الجزار. ج7 (ط:3؛ لا.م: دار الوفاء، 1426هـ، 2005م)، ص487، 488.

والخلاصة في ذكر أن الله يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات أن ذلك تهييج للحث على المسارعة بالتوبة، والمسارة إلى الصدقات، فكلاهما خير تلقاه الله تعالى بالقبول، ووصف الله تعالى صفة مؤكدة بأنه التواب الذي يكثر قبول التوبة، لأنه الرحيم ولذا قال تعالى بعد ذلك مترقبا أن يعلموا الخير ويتوبوا.⁽¹⁾

رابعا: الهدايات المستنبطة من الآيتين:

يستنبط من الآية:

- 1- ينبغي للتائب من الذنب الكبير أن يكثر بعده من الصالحات كالصدقات والصلوات ونحوها.⁽²⁾
 - 2- فرضية أخذ الصدقات وهي الزكوات الواجبة لتطهير النفوس وتزكيتها وتنمية الأموال والبركة فيها. وأن صلاة الرسول ﷺ شفاعة وطمأنينة.
 - 3- قبول الله توبة التائبين بحق أي التوبة النصوحة الصحيحة، وقبول الصدقات الصادرة عن خلوص النية والإثابة عليها، وسمى تعالى نفسه باسم الله لينبه على أن كونه إليها يوجب قبول التوبة، والتخصيص بالله يدل على أن قبول التوبة وردها إلى الله، لا إلى الرسول ﷺ.
 - 4- كل إنسان مجزي بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والعمل مشهود عند الله رسوله والمؤمنين، وفي ذلك وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ، وعلى المؤمنين، في عالم البرزخ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:18].⁽³⁾
- في هذا الموطن يبين الله ﷻ أنه المنفرد بقبول توبة المذنب، وأن من أسباب قبول التوبة صدقة الأموال التي تطهر النفس من البخل، وتزكي النفس وترفعها إلى منازل الأبرار حتى يكون صاحبها من أهل السعادة الدنيوية والأخروية.

(1) أبي زهرة، محمد بن أحمد، زهرة التفاسير. ج7 (لا.ط؛ لا.م: دار الفكر العربي، د.ت)، ص3437.

(2) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص423.

(3) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج11، ص31.

المطلب الثالث: التخويف الشديد للمتخلفين والحث على التوبة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرُوكَ مُرَجَّونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 106].

أولاً: مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر ﷺ القسمين المنجز عذابهم ومثابهم، ذكر المؤخر أمرهم وهو القسم الظالم لنفسه في الذي بدأ به في سورة فاطر سورة الحشر الآخر، ولا يبعد أن تكون هذه سورة الحشر الأول لأنه صلى الله عليه وسلم ساق الناس إلى أرض المحشر فقال: "وأخرون" أي منهم آخرون "مرجون" مؤخرون بين الرجاء والخوف الأمر كله لا يدرون أيعذبون أم يرحمون، وقدم قوله: "إمّا يعذبهم" إن أصبروا- تخويفاً لهم حملاً على المبادرة إلى التوبة وتصفيتها والإخلاص فيها وحث على أن يكون الخوف ما دام الإنسان صحيحاً أغلب وثني بقوله: "إمّا يتوب عليهم" أن تابوا ترجيه لهم وترقيقاً منه ومنعوها من حلوله وطيب مستقرة ومقبلة وحلي أوقاته وعلى مقاماته وشهي أوقاته.⁽¹⁾

ثانياً: المعنى الإجمالي:

وأخرون أي من بقى من المتخلفين ممن لم يتب الله عليه، وكان أمرهم موقوفاً إلى أن يقضي الله بما يشاء وهؤلاء نفر ثلاثة هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، قد تخلفوا عن غزوة تبوك ولم يكن تخلفهم نفاقاً ولا كراهية،⁽²⁾ ولم يصرح القرآن بقبول توبتهم ولم يسمهم باليأس من غفرانه فوقفوا على قدم خجل متميلين بين الرغبة والرغبة متمردين بين الخوف والرجاء إما أن يعذبهم أو يتوب عليهم. وحكمة إبهام الأمر إثارة الغم والحزن في قلوبهم لتصح توبتهم والجهاد لإعلاء كلمة الحق ودفع عدوان أهل الباطل عن المؤمنين وبقوا كذلك حتى تاب الله عليهم، وحكمة إبهامه على الرسول والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخالطتهم، تربية للفريقين على ما يجب أن يعامل به أمثالهم ممن يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله ورسوله.⁽³⁾

(1) البقاعي، نظم الدرر، مرجع سابق، ج9، ص15.

(2) ينظر: القشيري، عبد الكريم بن هوزان، لطائف الإشارات، (تفسير القشيري). تحقيق: إبراهيم البسيوني، ج2 (ط: 3؛ مصر: الهيئة العامة المصرية، د.ت)، ص61.

(3) ينظر: المراغي، تفسير المراغي، مرجع سابق، ج11، ص22.

ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآية:

1- إنَّ الحكمة الإلهية قد تقتضي البت في شأن بعض العباد، وقد ترجى ذلك، ليظل الناس في أمل ورجاء ورهبة وخوف، وقد أثمرت هذه الحكمة في دفع هؤلاء المخلفين عن التوبة إلى مزيد من الشعور بالقلق تقريبا على قبول توبتهم في قوله: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا...، وقوله: إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ دليل على أنه لا حكم إلا أحد هذين الأمرين، وهو إما التعذيب وإما التوبة. أما العفو عن الذنب من غير توبة فغير معتبر.⁽¹⁾

2- فضيلة الخوف والرجاء فالخوف يحمل على ترك المعاصي والرجاء يعمل على الإكثار من الصالحات.⁽²⁾

في هذا الموطن بيان أن المذنب يجب عليه أن يفصل أمره في توبته وأن يقع في قلبه الرهبة والخوف وأن يستفيد عظة وتهديبا، وأن لا يتبع هواه.

المطلب الرابع: التوبة من صفات المؤمنين

قَالَ تَعَالَى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِدُونَ الْحَمِدُونَ لِلسَّيِّئَاتِ الرَّاكِعُونَ أَلَمْ يَرَوْا بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112].

أولا: مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر ﷺ فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وأبان وأصناف المقصرين من المؤمنين، ذكر حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، البالغين في حد الكمال وبذا ثم معرفة جميع أحوال المؤمنين، وأولها الجهاد في سبيل الله.⁽³⁾ ولما كان ذلك سببا لتبشير، لأنه لا ترغيب في الجهاد أحسن منه، وكانت الآية السابقة واقعة موقع التعليل للأمر بالنفي والمال. ولما ثبت المعاقدة وأحكامها،

(1) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج11، ص37، 38.

(2) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص423.

(3) ينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج11، ص52، وينظر: مصطفى المراغي، تفسير المراغي، مرجع

سابق، ج11، ص30.

وصف المعاقدين على طريق المدح للحث على أوصافهم فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ
الْمَنَّاعُونَ الزَّكِيُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112].⁽¹⁾

قال الرازي: "اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة بين هذه الآية أن أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسعة".⁽²⁾

ثانياً: المعنى الإجمالي:

مما يدل على شرف ومقام التوبة وأهميتها ومكانتها في الإسلام أن الله ﷻ ابتدأ بها الأوصاف الصالحة المرتبة العالية من أهل الإيمان، فقال ﷻ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمَنَّاعُونَ
الزَّكِيُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: "هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة التائبون من الذنوب كلها التاركون للفواحش العابدون أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال، فمن أخص الأقوال الحمد، ولهذا قال: الحامدون ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ها هنا، ولهذا قال: السائحون كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَحْتَبِئْنَ﴾ [التحریم: 5] أي صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال الراكعون الساجدون وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: "وبشر

(1) البقاعي، نظم الدرر، مرجع سابق، ج 26، ص 26، 27.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج 16، ص 152.

المؤمنين" لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به".⁽¹⁾ والتائبون هم الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.⁽²⁾

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من الآية:

1- آية التائبون العابدون ذكرت أوصافاً تسعة، بعد صفة المجاهدين، فتكون أوصاف المؤمنين الكامل عشرة، والأوصاف التسعة هي: الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى حالة المحمودة في طاعة الله المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه، والراضون بقضاء الله، المصرفون نعمته في طاعته، الذين يحمدون الله على كل حال، الصائمون، وسمي الصائم سائحاً لأنه يترك اللذات كلها من المطعم والمشرب والمنكح، والراكون الساجدون في الصلاة المكتوبة وغيرها الآمرون بالمعروف أي بالإيمان أو بالنسبة والناهون عن المنكر من الكفر والبدعة والمعصية والحافظون لحدود الله أي القائمون بما أمر به والمنتهون عما نهي عنه، هذه أوصاف المؤمنين الكلمة ذكر الله ليتسابق المؤمنون في الاتصاف بها.

2- الحافظون لحدود الله تشمل جميع التكاليف الشرعية، سواء ما يتعلق منها بالعبادات

أو بالمعاملات، وأما تفصيل الصفات التسع قبلها، فلأنها أمور تلازم المكلف غالباً.

3- قوله: "بشر المؤمنين" للتنبية على أن البشارة المذكورة لم تتناول إلا المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات.⁽³⁾

4- على المؤمن أن يتعاهد نفسه ليرى هل هو متصف بهذه الصفات التسع أولاً فإن رأى نقصاً كمله وإن رأى كمالاً حمد الله تعالى عليه وحفظه وحافظ عليه.⁽⁴⁾

في هذا الموطن اعتنى الله تعالى بصفة التوبة حيث بدأ بها قبل كل الأوصاف، فمفارقة الذنوب كان ذلك قبل اقتراف الذنب أو بعده من صفات المؤمن.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج4، ص192.

(2) السعدي، تفسير السعدي، مرجع سابق، ج1، ص353.

(3) ينظر: القرطبي، تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج8، ص270، 269، وينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج11، ص56، 57.

(4) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص430.

المطلب الخامس: توبة الله على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 117].

أولاً: سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 117-119].

عن كعب بن مالك رضي الله عنه يحدث حين تخلف عن قصة تبوك فو الله ما أعلم أحدا أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا، وأنزل الله ﻛَلِمَةً على رسوله ﷺ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين و الأنصار "إلى قوله "وكونوا من الصادقين".⁽¹⁾

فهكذا جاء في سبب النزول هذه الآيات الكريمة، وقد أورد جمهور المفسرين هذا الحديث في سبب نزول الآيات فمنهم من ساق الحديث لطوله، ومنهم من أشار إليه إشارة، ولم يسقه بتمامه، ومن هؤلاء الطبري والبعغوي وابن العربي وابن عطية والقرطبي وابن كثير والسعدي وابن عاشور.

قال القرطبي: "وذلك أن المنافقين لم يقبل توبتهم، واعتذر أقوام تقبل عذرهم، وأخر النبي ﷺ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن".⁽²⁾

(1) أخرجه : البخاري في صحيحه، مرجع سابق، كتاب التفسير، باب: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين"، ج4، رقم الحديث: 1719، ص4401، وأخرجه: الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة ت 279هـ، سنن الترمذي(الجامع الصحيح). تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون. ج5(لا.ط؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).باب: تفسير القرآن، سورة التوبة، رقم الحديث: 3102، ص281.

(2) القرطبي، تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج1، ص616.

قال ابن عاشور: "والتعريف في الثلاثة تعريف العهد فإنهم كانوا معروفين بين الناس، وهم كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن الربيع من بني عمر وبن عوف، وهلال بن أمية الواقفي من بني واقف كلهم من الأنصار تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر، ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألهم عن تخلفهم فلم يكذبوه بالعذر ولكنهم اعترفوا بذنبهم وحزنوا. ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامهم، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم ثم عفا عنهم بعد خمسين ليلة".⁽¹⁾

فيكون سبب النزول ما جاء في قصة كعب بن مالك وصاحبيه ﷺ لصحة السند، وموافقة السياق القرآني وإجماع المفسرين عليه.⁽²⁾

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها:

لما استقصى الله تعالى في شرح أحوال غزوة تبوك بين أحوال المتخلفين عنها، وأطال القول في ذلك على الترتيب، عاد في هذه الآية إلى شرح ما بقي من أحكامها.

ومن بقية تلك الأحكام أنه قد صدر عن رسول الله ﷺ نوع زلة جارية مجرى ترك الأولى، وصدر أيضاً عن المؤمنين نوع زلة، فذكر تعالى أنه تفضل عليهم وتاب عليهم في تلك الزلات، فقال: لقد تاب الله على النبي".⁽³⁾

وهذا أسلوب القرآن في تفريق الآيات في الموضوع الواحد، للتأثر على النفس، وتحديد الذكرى، ومنع اليأس في التلاوة.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج10، ص221.

⁽²⁾ خالد بن سليمان المزيني، المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية. ج1(ط:1؛ المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي، 1427هـ، 2006م)، ص616، 615.

⁽³⁾ ينظر: الرازي، تفسير الرازي، مرجع سابق، ج16، ص161.

⁽⁴⁾ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج11، ص65.

ثالثا: المعنى الإجمالي:

لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته، نبيه محمدا ﷺ، والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار السلام. وأنصار رسوله في الله، الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء".⁽¹⁾ وافتتاح الكلام بما يؤذن بالبشارة لرضى الله على المؤمنين الذين غزوا في غزوة تبوك، فمن لطف الله وإحسانه توبته على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، غفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات.⁽²⁾

ولهذا قال: الذين ﴿أَتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ أُعْسَرَةِ﴾ ، أي عند خروجه إلى تبوك في الحر الشد والفاقة الشديدة وقوله: "من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم" وذلك لصعوبة الحال وشدّة الموقف.⁽³⁾

فلا بد أن ندرك أن التوبة ليست بالضرورة توبة المذنبين بل قد تكون توبة المقصرين، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرين والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح.⁽⁴⁾

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة".⁽⁵⁾ وفي هذا إبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله.

⁽¹⁾ ينظر: الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج14، ص539.

⁽²⁾ السعدي، تفسير السعدي، مرجع سابق، ج1، ص435.

⁽³⁾ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص434.

⁽⁴⁾ الزمخشري، تفسير الكشاف، مرجع سابق، ج2، ص316.

⁽⁵⁾ أخرجه: البخاري في صحيحه، مرجع سابق، كتاب الدعوات، باب: استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة، ج5، رقم

الحديث: 5948، ص2324.

ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآية:

موضوع الآية التوبة:

فالتوبة كانت شاملة عامة لكل من شارك في غزوة العسرة أو غزوة تبوك، وذلك تفضل من الله ورحمة بعد ما تعرضوا للشدائد في جميع أوقات تلك الغزوة، فاجتمع عليهم عسرة الظهر، وعسرة الزاد، وعسرة الماء.⁽¹⁾

قال ابن العربي: " تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّ رُدُّهُ مِنْ حَالَةِ الْعُقْلَةِ إِلَى حَالَةِ الذِّكْرِ ، وَتَوْبَةُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رُجُوعُهُمْ مِنْ حَالَةِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى حَالَةِ الطَّاعَةِ ، وَانْتِقَالُهُمْ مِنْ حَالَةِ الْكَسَلِ إِلَى حَالَةِ النَّشَاطِ ، وَخُرُوجُهُمْ عَنْ صِفَةِ الْإِقَامَةِ وَالْقُعُودِ إِلَى حَالَةِ السَّفَرِ وَالْجِهَادِ .

أما تَوْبَةُ اللَّهِ تَكُونُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : دُعَاؤُهُ إِلَى التَّوْبَةِ ، يُقَالُ : تَابَ اللَّهُ عَلَى فُلَانٍ ، أَيْ دَعَاهُ وَيُقَالُ : تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ : يَسِّرُهُ لِلتَّوْبَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ خَبْرًا ، وَقَدْ يَكُونُ دُعَاءً .

وَيُقَالُ : تَابَ عَلَيْهِ : تَبَّتَهُ عَلَيْهَا ، وَيُقَالُ : تَابَ عَلَيْهِ : قَبِلَ تَوْبَتَهُ ؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحٌ ، وَقَدْ جَمَعَ لَهُؤُلَاءِ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَيَفْتَرِقُ فِي سَائِرِ النَّاسِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُوهُ إِلَى التَّوْبَةِ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَلَا يُيسِّرُهَا لَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُوهُ إِلَيْهَا وَيُيسِّرُهَا وَلَا يُدِيمُهَا ، فَإِنْ دَامَتْ إِلَى الْمَوْتِ فَهِيَ مَقْبُولَةٌ قَطْعًا " .⁽²⁾

وقال ابن عطية: "التوبة" من الله رجوعه بعبد من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رجوعا من حالة طاعة إلى أكمل منها وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ لأنه رجع من حالة قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حالة بعد ذلك كله، وأما توبته على: "المهاجرين والأنصار" فحالها معرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين، وأما توبته على الفريق الذي كاد يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى حال غفران ورضا".⁽³⁾

(1) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج11، ص70.

(2) ابن العربي، أحكام القرآن، مرجع سابق، ج2، ص446.

(3) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. ج3 (ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ)، ص92.

إنَّ التوبة ليست مقتصرة فقط على من قارب الزرع أو زاع ثم تاب بل تشمل أيضا من كان متبعا لله عز وجل لأن واحد فقير إلى الغني الكبير.

المطلب السادس: التنويه بشأن المخلفين وضمهم مع المقطوع عنهم بالرضا وبعثا للمؤمنين على التوبة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَّيِبُهُمُ اللَّهُ وَيَكْفُرُهُمْ مِمَّا سَفَعُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّوَدِّعِهِمْ يُرْسِلُ فِيهِمْ طَائِفًا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ شَيْءٍ عَظِيمٍ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: 118-119].

أولا: مناسبة الآيتين لما قبلها:

لما صرح سبحانه وتعالى بالتوبة على من قارب الزرع وخلط معهم أهل الثبات إشارة إلى أن كل أحد فقير إلى الغني الكبير وليكون اقتراحهم بأهل المعالي، وجعلهم في حيزهم تشريفا لهم وتأييسا لئلا يشتد إنكارهم، أتبعه التوبة على من وقع منه الزرع فقال غير مصرح بالزرع تعليما للأدب وجبرا للخواطر والمنكسرة فقال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118].⁽¹⁾

قال الرازي: "في قوله تعالى: وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه". هذا معطوف على الآية الأولى، والتقدير: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا والفائدة في هذا العطف أنا بينما أن من ضم ذكر توبته إلى توبة النبي ﷺ، كان ذلك دليلا على تعظيمه

(1) البقاعي، نظم الدرر، مرجع سابق، ج9، ص38.

وإجلاله، وهذا العطف يوجب أن يكون قبول توبة النبي ﷺ وتوبة المهاجرين والأنصار في حكم واحد وذلك يوجب إعلاء شأنهم وكونهم مستحقين لذلك".⁽¹⁾

ثانيا: المعنى الإجمالي:

وفي الأخير توبة خاصة بالثلاثة المؤمنين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.⁽²⁾

فلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فَرَّجَ بِهِ عَنْ هَؤُلَاءِ مِنَ الضِّيقِ وَالْكَرْبِ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ لَيْلَةً بِأَيَّامِهَا، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، أَي مَعَ سَعَتِهَا فَسَدَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكُ وَالْمَذَاهِبُ فَلَا يَهْتَدُونَ مَا يَصْنَعُونَ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ اسْتَكَانُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَثَبَتُوا حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تَخَلُّفِهِمْ، وَأَنَّهُ كَانَ عَنْ غَيْرِ عَذْرٍ فَعُوقِبُوا عَلَى ذَلِكَ هَذِهِ الْمُدَّةَ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَكَانَ عَاقِبَةُ صَدَقَتِهِمْ خَيْرًا لَهُمْ تَوْبَةً عَلَيْهِمْ، وَهَذَا قَالَ " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ " أَيِ اصْدُقُوا وَالزُّمُوا الصَّدَقَ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ وَتَنْجُوا مِنَ الْمَهَالِكِ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ فَرْجًا مِنْ أُمُورِكُمْ وَمُخْرَجًا.⁽³⁾

فالآية تشير الاقتداء بهؤلاء الأخيار بقوله: وفي هذه الآيات دليل أن الله تعالى من عليهم بالصدق

ولهذا أمر بالاقتداء في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119].⁽⁴⁾

ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآيتين:

1- ذكر في هذه الآية الأوصاف الثلاثة للذين تخلفوا عن غزوة تبوك وذلك دليل على صدقهم في التوبة. لذا أمر الله تعالى بالصدق بعد هذه الأوصاف، وهو خطاب لجميع المؤمنين يأمر فيه تعالى التزام مذهب الصادقين وسبيلهم.

⁽¹⁾ الرازي، تفسير الرازي، مرجع سابق، ج16، ص164.

⁽²⁾ تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، ينظر: شهاب الدين الحموي، معجم البلدان. ج2(ط:2؛ بيروت: دار صادر، 1995م)، ص14.

⁽³⁾ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج4، ص205.

⁽⁴⁾ ينظر: السعدي، تفسير الكريم الرحمن في تفسير الكلام المنان، مرجع سابق، ج1، ص354.

والآية هذه توجب الصدق، وهو أمر حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق، وأبعدهم عن منازل المنافقين، وهي دالة على فضل الصدق، وكمال درجته.⁽¹⁾

ولهذا جاءت الآية في بيان فضل كعب بن مالك وصاحبيه في صبرهم وصدقهم ولجؤهم إلى الله تعالى حتى فرج عليهم وتاب عليهم وكانوا مثلاً للصدق .

3- وجوب التقوى والصدق في النيات والأقوال والأحوال والأعمال .⁽²⁾

ولا شك بأن التوبة النصوح من أخص أحوال الصدق، فما على العاقل المتقي إلا ملازمة الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأفعال، والصفاء في الأحوال، ومن اتصف بذلك صار مع الأبرار، وحظي برضا الإله الغفار.⁽³⁾

إن تاب المؤمن توبة نصوحا وصادقة فإنّ المولى ﷺ سيقبلها، لأنه سمي نفسه التواب الرحيم ولكي يكون دافعا لأصحاب المعاصي إلى أن يتوبوا، ولكي لا يكون هناك قنوط من رحمة الله تعالى.

⁽¹⁾ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج11، ص71.

⁽²⁾ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص210.

⁽³⁾ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، مرجع سابق، ج11، ص71.

خاتمة

الحمد لله الذي أتم عليّ النعم، ووالى بفضله المنن، فأعانني وأكملت رسالتي بالصورة التي أرجو بها مرضاة ربي فمن يتوكل على الله فهو حسبه وناصره، وأسأل الله القبول، وأن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم. وبعد...

أمر الله ﷻ بالتوبة فقال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31].

ووعده بالقبول عليها، فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: 25]. وفتح لعباده أبواب الرجاء في عفوه ومغفرته، وأمرهم أن يلجؤوا إلى ساحات كرمه وجوده طالبين تكفير السيئات وستر العورات، وقبول توبتهم، لا يطردهم من رحمة الله طارد، ولا يوصد بينهم وبين الله باب قال تعالى: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: 53].

ولهذا جاءت سورة التوبة، والتي شملت وتضمنت توبة الله تعالى على من من الله عليه بالتوبة، وحث آخرين وهياً لآخرين أسباب التوبة ليتوبوا، فمن أول السورة حتى آخرها، هبت نسيمات التوبة وجمع معه أهل العزائم والهمم، من بين ثنايا الآيات، وخاصة مواطن التوبة التي وردت في هذه السورة الكريمة وختمها بتوبته على خير المخلوقات ﷻ وجمع معه أهل العزائم والهمم، وختم بتوبته على الذين هياً لهم الاستغفار وحسن الظن، فانتظروا فرجه وتوبته، ليبين أن كل أحدٍ بحاجة مغفرته، ليرسم خطوطاً عريضةً في بيان عظمته، وكمال عنايته لهداية خلقه، وإعطاء المعاندين فرصة التوبة والتنصل من ذنوبهم، والولوج إليه من أوسع أبواب رحمته.

وبهذا يمكن إجمال أهم النتائج على النحو التالي:

- 1- التوبة في اللغة تدور حول معاني الرجوع، والعودة، والإنابة، والندم.
- 2- التوبة في الشرع هي ترك الذنب علماً بقبحه، وندماً على فعله، وعزماً على عدم العودة إليه عند القدرة عليه، وتداركاً لما يمكن تداركه من الأعمال، وأداء لما ضيّع من الفرائض إخلالاً لله، ورجاءً لثوابه، وخوفاً من عقابه، وأن يكون ذلك قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

- 3- أن التَّوْبَةُ واجبةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ, فَإِنْ كَانَتْ الْمُعْصِيَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَتَعَلَّقُ بِحَقِّ آدَمِيِّ, فَلَهَا ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ:
أَحَدُهَا: أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الْمُعْصِيَةِ.
وَالثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا.
وَالثَّلَاثُ: أَنْ يَعْرِضَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا. فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ. باب التوبة مفتوح؛ حيث أمرنا الله بالتوبة، وحض عليها، ووعد بقبولها.
- 4- للتوبة فضائل جمّة، وأسرار بديعة، وفوائد متنوعة.
- 5- إن للتوبة مكانة عظيمة في القرآن الكريم، فقد أضفى الله عليها ﷺ شرف ارتباطها بأسمائه الحسنی.
- 6- وجعلها مطلع ذكر الصفات الجليلة للمؤمنين.
- 7- وقد وردت كلمة التوبة (17) سبع عشرة مرة في سورة التوبة.
- 8- إن مواطن التوبة في هذه السورة وصلت إلى اثنتي عشر موطنًا، منها ما تعلق بتوبة المشركين والمنافقين، ومنها ما تعلق بالمؤمنين.
- 9- ليس العاصي والمذنب وحده محتاج إلى توبة، بل حتى المؤمنین وخير الخلق محمد ﷺ والمهاجرين والأنصار. فقد ذكر لهم مواطن توبة في القرآن.
- 10- لا يكفي الاعتراف بالذنب لقبول التوبة بل يجب رد المظالم إلى أهلها لاستكمال شروط التوبة التي مرت.
- وفي الأخير أتوجه بالشكر إلى الله ﷻ على إعمانه وتوفيقه.
كما أسأله ﷻ أن تجد هذه الصفحات قبولاً في القلوب، وأن يكون لها أثر في النفوس.
وأن يمن علينا وعلى أمة الإسلام بالتوبة النصوح، التي ترفع عن المسلمين الغشاوة والذلة؛ عسى أن نسير إلى حياة سامية، وعز لا يبلى وما ذلك على الله بعزیز قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].
- وأخيراً أستغفر الله، وأتوب إليه إن كان هناك من زلل، أو خطأ، وأعتذر إن كان هناك من إملال أو إثقال، أو إخلال.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهارس العامة

1- فهرس الآيات القرآنية

2- فهرس الأحاديث النبوية

3- فهرس الكلمات

4- فهرس المصادر والمراجع

5- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية أو شطرها - السورة ورقمها -
سورة الفاتحة [1]		
13	7-6	﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ...﴾
سورة البقرة [2]		
39	20	﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ...﴾
11-9	54	﴿...فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ...﴾
9	187	﴿...فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ...﴾
22	222	﴿...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾
سورة آل عمران [3]		
18	136-135	﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً...﴾
سورة النساء [4]		
18	18-17	﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ...﴾
40	176	﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾
سورة المائدة [5]		
9	74	﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ...﴾
13	77	﴿...وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ...﴾
سورة الأعراف [7]		
66	23	﴿فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا...﴾
11	143	﴿...قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

13	146	﴿ سَاصِرْفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... ﴾
13	176-175	﴿ وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ... ﴾
سورة الأنفال [8]		
34	34	﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ... ﴾
35	56	﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ... ﴾
30	57	﴿ فَأَمَّا تَثَقَفَتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴾
35	58	﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مَن قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَنْذِرْ لَهُمُ عَلَى سَوَاءٍ ... ﴾
35	74	﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾
سورة التوبة [9]		
31	2	﴿ ... وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكٰفِرِينَ ﴾
26	3	﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ... ﴾
36	3	﴿ ... وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾
41-27	3	﴿ ... فَإِن تَبَتَّمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴾
49-48	3	﴿ وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ... ﴾
35	4	﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ... ﴾
51-40	5	﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ... ﴾
41	5	﴿ ... فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾
54-35	7	﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ... ﴾

34	18	﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ...﴾
56-39	15-14	﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخِزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمُ ...﴾
47	15	﴿... وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
58	27 -26 -25	﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ...﴾
59	27	﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ مُّبَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
26	39	﴿إِلَّا نَنفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ...﴾
32	34	﴿... وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾
45	38	﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾
32	42	﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾
45	47	﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمُ إِلَّا ...﴾
30	64	﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنزَلَ عَلَيْهِمُ سُورَةٌ يُنَبِّئُهُمُ ...﴾
32	65	﴿وَلِينَ سَأَلْتَهُم لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ...﴾
41	66	﴿إِن نَّعَفَ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ...﴾
26	70	﴿أَلَمْ يَأْتِهِمُ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ ...﴾
-61-60-41	74-73	﴿... فَإِن يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَهُمْ ...﴾
63		
61	73	﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جُنُودَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ...﴾
63	74	﴿... وَهُمْ أُو۟بَايِعُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ...﴾
63	74	﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَن أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ...﴾

66-65-764	102	﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا...﴾
67-65	103	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ...﴾
70	106	﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ...﴾
46	107	﴿...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا...﴾
72-71	112	﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاعِدُونَ...﴾
32	113	﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾
74-11	117	﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ...﴾
78-42-41	118	﴿...ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾
78	119 - 118	﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ...﴾
79	119	﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾
38-37	128	﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾
سورة يونس [10]		
37-36	2	﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ...﴾
38	108	﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ...﴾
سورة هود [11]		
23	3	﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَنِّعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾
سورة يوسف [12]		
66	87	﴿...تَأْتِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾
سورة الرعد [13]		
9	30	﴿...عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾

سورة النور [24]		
20-15-11-9	31	﴿... وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
سورة الفرقان [25]		
21	70	﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
9	71	﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾
سورة الأحزاب [33]		
11	73	﴿... وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
سورة فاطر [35]		
12	32	﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ۗ وَمَنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ يُأْذِنُ اللَّهُ ۗ﴾
سورة الزمر [39]		
42-21	53	﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ...﴾
سورة غافر [40]		
8	3	﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ...﴾
سورة الفتح [48]		
22	1	﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾
سورة الذاريات [51]		
39	56	﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

سورة النجم [53]		
13	4-1	﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾
سورة الواقعة [56]		
12	12-7	﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةٍ النَّعِيمِ﴾
12	89-88	﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَّعِيمٍ﴾
سورة المنافقون [63]		
62	3	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾
62	8	﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَبِّعُنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضَ مِنْهَا الْأَذَلَّ...﴾
سورة التحريم [66]		
72	5	﴿... سَبَّحْتِ...﴾
21-17-15	8	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...﴾
سورة الحاقة [69]		
69	18	﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ حَافِيَةٌ﴾
سورة المزمل [73]		
51	16-15	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾

سورة الإنسان [76]

12

6-3

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا...﴾

سورة المطففين [83]

66

14

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

فهرس الكلمات

رقم الصفحة	الكلمة
49	الأذان
49	البراء
51	الأشهر الحرم
75	تبوك

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب.

- 1- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط. لا.ط؛ لا.م: دار الدعوة، د.ت.
- 2- أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتبه: محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه وصححه: محمد الدين الخطيب، تعليقات العلامة: عبد العزيز بن باز. لا.ط؛ بيروت: دار المعرفة، 1379هـ.
- 3- إسماعيل الهروي، منازل السائرين . لا.ط؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1006هـ، 1079م.
- 4- الآلوسي: محمود أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية. ط: 1؛ بيروت، دار إحياء التراث العلمي، 1415هـ.
- 5- البقاعي: إبراهيم بن أبي بكر ، نظم الدور في تناسب الآيات والسور. لا.ط؛ القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت.
- 6- أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، موقع التفاسير: (www.altafsir.com).
- 7- البيضاوي: ناصر الدين بن محمد الشيرازي. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط: 1؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418هـ.
- 8- الترمذي، محمد بن عيسى بن سوره ت 279هـ ، سنن الترمذي(الجامع الصحيح) تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون. لا.ط؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- 9- ابن تيمية : تقي الدين أبو العباس المشهور بشيخ الاسلام ،جامع الرسائل ،تحقيق: محمد رشاد سالم . لا.ط؛ جدة: دار المدني ،د.ت.

- 10- ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس، مجموع الفتاوى. ط:3؛ لا.م: دار الوفاء، 1426هـ، 2005م.
- 11- ابن تيمية، الفتاوى الكبرى. ط:1؛ لا.م: دار الكتب العلمية، 1408هـ، 1987م.
- 12- الجرجاني: علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء. ط:1؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1403هـ، 1983م.
- 13- الجصاص: أحمد بن علي أبو بكر الرازي، أحكام القرآن. تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين. ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ، 1994م.
- 14- ابن جوزي: جمال الدين أبو الفرج، زاد الميسر في علم التفسير. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. ط:1؛ بيروت: دار الكتاب العربي، 1422هـ.
- 15- ابن جوزي: جمال الدين أبو الفرج، فنون الأفتان في علوم القرآن، تحقيق: حسن ضياء الدين عنتر. ط:1؛ بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1408هـ، 1987م.
- 16- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. لا.ط؛ بيروت: لا.م، د.ت.
- 17- الخازن: علاء الدين بن عمر، الباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح: محمد علي شاهين. ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ.
- 18- خالد بن سليمان المزني، المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية. ط:1؛ المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي، 1427هـ، 2006م.
- 19- الرازي: أبو عبد الله محمد التيمي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). ط:3؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.
- 20- الرازي: زين الدين الحنفي، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد. ط:5؛ بيروت، صيدا: مكتبة العصرية، الدار النموذجية، 1420هـ، 1999م.

- 21- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ط:1؛ دمشق، بيروت: دار القلم، دار الشامية، 1412هـ
- 22- ابن رجب الحنبلي، ابن القيم، أبي أحمد الغزالي، تركية النفوس وترتيبها كما يقرره علماء السلف، جمع: أحمد فريد، تحقيق: ماجد بن أبي الليل. ط:1؛ بيروت، دار القلم، 1405هـ، 1985م.
- 23- الزركشي: أبو عبيدة الله، البرهان في علوم القرآن.، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. لا.ط؛ بيروت: دار المعرفة، 1391هـ، 1911م.
- 24- الزمخشري: أبو القاسم بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط:3؛ بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ.
- 25- أبي زهرة: محمد بن أحمد، زهرة التفاسير. لا.ط؛ لا.م: دار الفكر العربي د.ت.
- 26- السعدي: عبد الرحمان بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. ط:1؛ لا.م: مؤسسة الرسالة، 1420هـ، 2000م.
- 27- أبي سعود: العمادي بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. لا.ط؛ لا.م: دار الفكر العربي، د.ت.
- 28- أبي سعود: العمادي محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. لا.ط؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- 29- سعيد حوى، الأساس في التفسير. ط:6؛ القاهرة: دار السلام، 1424هـ.
- 30- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط:17؛ بيروت، القاهرة: دار الشروق، 1412هـ.

- 31- السيوطي: عبد الرحمان بن جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور. لا.ط ؛ بيروت: دار الفكر، د.ت.
- 32- السيوطي، ، الإتقان في علوم القرآن. لا. ط؛ القاهرة: دار الحديث، د.ت.
- 33- السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول. لا.ط ؛ بيروت: دار إحياء العلوم، د.ت.
- 34- الشعراوي، محمد المتولي، تفسير الشعراوي. لا.ط؛ لا.م: مطابع أخبار اليوم، 1997م.
- 35- الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. لا.ط؛ بيروت: دار الفكر، 1415هـ، 1995م.
- 36- شهاب الدين الحموي، معجم البلدان. ط:2؛ بيروت: دار صادر، 1995م.
- 37- الشوكاني: محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . ط:1؛ دمشق، بيروت: دار ابن دار الكلم الطيب، 1414هـ.
- 38- الصابوني: محمد علي ، قيس من نور القرآن الكريم. ط:2؛ دمشق: دار القلم، 1408هـ، 1988م.
- 39- صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله . ط:4؛ الرياض ، المملكة العربية السعودية: دار بلنسية للنشر والتوزيع، 1416هـ.
- 40- الطبراني: أبو القاسم سليمان: المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله. لا.ط ؛ القاهرة: دار الحرمين، 1415هـ.
- 41- الطبري: محمد ابن جرير ، جامع البيان عن تأويل أي القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. ط:1؛ لا.م: دار هجر، 1422هـ، 2001م

- 42- عبد القادر بن موسى الجليلاني، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل. تخرّيج: محمد خالد عمر. ط:1؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1416هـ، 1996م.
- 43- عبد الله محمود شحاته، أهداف كل سورة ومقاصدها. لا.ط؛ مصر: المكتبة المصرية، 1976م.
- 44- ابن عربي: محمد بن عبد الله المالكي أحكام القرآن. ط:3، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ، 2003م
- 45- ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ.
- 46- علي أحمد الطهطاوي ، منهاج الأبرار شرح كتاب التوبة والاستغفار لشيخ الإسلام بن تيمية . ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1425هـ، 2004م.
- 47- الامام غزالي، علل وأدوية. ط:1؛ مصر: دار النهضة، د.ت.
- 48- ابن فارس :أحمد بن زكريا ،معجم مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. لا.ط ؛ لا.م: دار الفكر، 1339هـ، 1977م.
- 49- الفيروز آبادي: محمد الدين أبو طاهر، تحقيق: محمد علي النجار. لا.ط القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، 1416هـ، 1996م.
- 50- القاسم محمد النويري، شرح طيبة النشر في القراءات العشر، تحقيق: مجدي محمد سرور. ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ، 2003م.
- 51- القاسمي :محمد جمال الدين ، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السوء. ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ.

- 52- القرطبي: أبو عبد الله بن أبي بكر ، جامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط:2؛ القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ، 1964م.
- 53- القشيري، عبد الكريم بن هوازن الطائف الإشارات، (تفسير القشيري) تحقيق: إبراهيم البسيوني. ط:3؛ مصر: الهيئة العامة المصرية، د.ت.
- 54- ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين في إياك نعبد إياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. ط:3؛ بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ، 1996م.
- 55- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي: تفسير القرآن العظيم تحقيق: محمد حسين شمس الدين. ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ.
- 56- الماوردي: أبو الحسن علي البصري، النكت والعيون، تفسير الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم. لا.ط؛ بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
- 57- المتولي الشعراوي، التوبة . ط:1؛ مصر: مكتبة التراث الإسلامي، 1422هـ، 2001م.
- 58- محمد بن إسماعيل البخاري ت256هـ، الجامع الصحيح. ضبط وترقيم وشرح وفهرسة : د. مصطفى البغا. ط:3؛ بيروت: دار ابن كثير، 1407هـ، 1987م.
- 59- محمد رشيد رضا، تفسير المنار. لا.ط؛ مصر: الهيئة المصرية العامة، 1990م.
- 60- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. لا. ط بيروت: دار الهجرة، 1985م.
- 61- المراغي: أحمد بن مصطفى ، تفسير المراغي. ط:1؛ مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1365هـ، 1946م.
- 62- مسلم بن الحجاج النيسابوري ت261هـ ، الجامع الصحيح .لا.ط؛ بيروت: دار الجيل، دار الأفاق الجديدة، د.ت.

- 63- ابن منظور: محمد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب. ط:1؛ بيروت: دار صادر، د.ت.
- 64- النووي: أبو زكريا محي الدين، رياض الصالحين. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط:3؛ بيروت: مؤسسة الرسالة، 1419هـ، 1998م.
- 65- النووي: أبو زكريا محي الدين، المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج. ط:1؛ مصر: المطبعة المصرية بأزهر، 1329هـ، 1930م.
- 66- النيسابوري: أبو الحسن بن علي الواحدي، أسباب النزول، تحقيق: كمال بسيوني زغلول. ط:1؛ بيروت: دار الكتب العلمية، 1411هـ.
- 67- النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: زكريا عميرات . ط:1؛ بيروت: الدار الكتب العلمية، 1416هـ.
- 68- ابن هشام، السيرة النبوية، تعليق: عمر عبد السلام تدمري. ط:3؛ بيروت: دار الكتاب العربي، 1410هـ، 1990م.
- 69- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. ط:2؛ دمشق: دار الفكر المعاصر، 1418هـ.

فهرس الأحاديث النبوية

رقم الصفحة	طرف الحديث
19	"من كانت له مظلمة لأخيه، من عرضة أو شيء، فليتحلله منه اليوم..."
23	"أقرب ما يكون العبد من ربه..."
25	"الله أفرح بتوبة عبده من أحد..."
28	"سورة التوبة؟ قال النوبة؟ قال: (قال الفاضحة...)"
40	آخر آية نزلت: قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾
74	"حين تخلف من غزوة تبوك..."
76	"والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه..."

قائمة الأشكال والجداول

جزء	ج
صفحة	ص
توفي	ت
هجري	هـ
ميلادي	م
لا ناشر	لا.ن
لا مكان طبع	لا.م
بدون ذكر تاريخ	د.ت
لا طبعة	لا.ط

فهرس الموضوعات

إهداء.
شكر وعرفان.
المقدمة.....أ- و
الفصل الأول: ماهية التوبة ودراسة سورة التوبة
المبحث الأول: ماهية التوبة.....8
المطلب الأول: معنى التوبة لغة واصطلاحا.....8
التوبة لغة.....8
التوبة اصطلاحا.....8
المطلب الثاني: معاني التوبة في القرآن الكريم.....11
المطلب الثالث: أنواع التوبة.....12
المطلب الرابع: حكم التوبة.....14
المطلب الخامس: شروط التوبة.....16
المطلب السادس: فضائل التوبة.....20
المبحث الثاني: التعريف بالسورة.....26
المطلب الأول: بين يدي السورة.....26
أولا: عدد آيات السورة وبيان مكيتها ومدنيها.....26
ثانيا: أسماءها.....27
المطلب الثاني: سبب نزول السورة.....31
المطلب الثالث: مناسبات السورة.....33
المطلب الرابع: المحور الأساسي لسورة التوبة.....39

المطلب الخامس: أهداف السورة.....	43
الفصل الثاني: مواطن التوبة في سورة التوبة.	
المبحث الأول: أسلوب التعامل مع المشركين حال الحرب.....	48
المطلب الأول: الدعوة وإقامة الحجّة إبتداءً.....	48
أولا : مناسبة الآية لما قبلها.....	48
ثانيا: المعنى الإجمالي.....	49
ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآية.....	50
المطلب الثاني: شروط توبة المخالف أو المنادي.....	51
أولا : مناسبة الآية لما قبلها.....	51
ثانيا: المعنى الإجمالي.....	51
ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآية.....	52
المطلب الثالث: معاملة المشركين كالأخوان واستمالتهم للدخول في الإسلام.....	54
أولا : مناسبة الآيات لما قبلها.....	54
ثانيا: المعنى الإجمالي.....	55
ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآيات.....	55
المطلب الرابع: الإعجاز في توبة المشركين بعد الأمر بالقتال.....	56
أولا : مناسبة الآيتين لما قبلها.....	56
ثانيا: المعنى الإجمالي.....	56
ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآيتين.....	57
المطلب الخامس: توبة الله على المؤمنين وتذكيرهم بالنصر بعد الابتلاء.....	58
أولا : مناسبة الآيات لما قبلها.....	58
ثانيا: المعنى الإجمالي.....	59

60.....	ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآيات.....
60.....	المطلب السادس: تهديد للمنافقين والمرتدين وفتح باب التوبة لهم.....
60.....	أولا : مناسبة الآيتين لما قبلها.....
61.....	ثانيا: المعنى الإجمالي.....
62.....	ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآيتين.....
64.....	المبحث الثاني: الجو العام لغزوة تبوك.....
64.....	المطلب الأول: الندم على ما فات والتحذير من إثارة الدعة والرضا بسوء الجوار.....
64.....	أولا: سبب النزول.....
65.....	ثانيا: مناسبة الآية لما قبلها.....
65.....	ثالثا: المعنى الإجمالي.....
66.....	رابعا: الهدايات المستنبطة من الآية.....
67.....	المطلب الثاني: الحث على التوبة والصدقات.....
67.....	أولا: مناسبة الآيتين لما قبلها.....
68.....	ثانيا: المعنى الإجمالي.....
69.....	ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآيتين.....
70.....	المطلب الثالث: التخويف الشديد للمتخلفين والحث على التوبة.....
70.....	أولا: مناسبة الآية لما قبلها.....
70.....	ثانيا: المعنى الإجمالي.....
71.....	ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآية.....
71.....	المطلب الرابع: التوبة من صفات المؤمنين.....
71.....	أولا: مناسبة الآية لما قبلها.....
72.....	ثانيا: المعنى الإجمالي.....
73.....	ثالثا: الهدايات المستنبطة من الآية.....
74.....	المطلب الخامس: توبة الله على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار.....

74.....	أولاً: سبب النزول.....
75.....	ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها.....
76.....	ثالثاً: المعنى الإجمالي.....
77.....	رابعاً: الهدايات المستنبطة من الآية.....
78.....	المطلب السادس: التنويه بشأن المخلفين وضمهم مع المقطوع عليهم بالرضا وبعثنا للمؤمنين على التوبة.....
78.....	أولاً: مناسبة الآيتين لما قبلها.....
79.....	ثانياً: المعنى الإجمالي.....
79.....	ثالثاً: الهدايات المستنبطة من الآيتين.....
82.....	خاتمة.....
84.....	الفهارس العامة.....
85.....	فهرس الآيات القرآنية.....
92.....	فهرس الأحاديث النبوية.....
93.....	فهرس الكلمات.....
94.....	فهرس المصادر والمراجع.....